مجدي عمر

قلوب لم تمت

daralmoltaqa@gmail.com

حقوق الطبع محفوظة لدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع

ردمك: 978-977-85411-7-9
رقم الإيداع القانوني: 2018/21278

ملتقى المعرفة

حقوق الطبع محفوظة لدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع وأي اقتباس أو إعادةطبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر. يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

المراجعة اللغوية والإخراج الفني: فريق العمل بدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع

القاهرة / مصر
جوال: 00201278821670
00201003528058

daralmoltaqa@gmail.com

وراء كلّ شخص ناجح بشرٌ لعبوا دور الملائكة وألهموه أنه قادر
على الوصول...

شكرًا...

الفصل الأول

(الاكتئاب ليس مجرد حالة نفسية، بل هو مرض قادر على الفتك بروحك قبل جسدك)

إلى أين ملائكتي؟ هل حان وقت خروجي من الجنة؟.... الآن.

أكان كثيرًا علَّي أن أبقى ساعات إضافية أنعَم فيها بأنفاسكم الدافئة في أركان البيت، ذهبتم حتى قبل أن ننهي فيلمنا الذي اعتدنا أن نشاهده في أحضان بعضنا البعض ليلًا، ذهبتم قبل إخباري بأن تلك هي اللحظات الأخيرة حتى أعانقكم بقوة.

عزيزتي: هل تسمعينني؟! أخبريني أنكِ حيّة ولم تذهبي بعد، قبِّلي شفتيَّ، ثم ضعي رأسك على صدري، وأخبريني أن كل شيء سيكون على ما يرام، وأنتي يا صغيرتي لا تكوني ساكنة هكذا، افتحي عينيكي وشدي أنفي ثم اضحكي كما اعتدتي أن تلاطفيني، هيا انهضي، أراكي ما زلت تبتسمي رغم تلك اللحظة المخيفة التي مررنا بها، ربما أخذكِ الموت قبل أن تقابلي رصاص هؤلاء الوحوش، الذين ضلت قلوبهم الرحمة، فقبل أن يحدث ما حدث كانت تختلط سعادتنا على تلك الأريكة في ظل روح البيت الهادئ، لكن الآن اختلطت دماء

أسرتنا الصغيرة تحت ذلك اللحاف الأزرق الذي كان يلمُّ بنا، ولم أعد أعرف أي ثقبٍ بروحي ينزف أكثر، فلم يحمِهم عناقي لهم، ولم يكن هناك وقت لألتقط سلاحي وأدافع عنهم، ولم يأخذ الأمر سوى لحظات لتتحول أرواحهم المبهجة إلى جثث هامدة، ولم يبق غيري، ما زالت أنفاسي تصارع من أجل البقاء، حتى انتقم ممن فعلوا ذلك، على الرغم من عدم تأكدي أني كنت سأحيا أم سألحق بهم أو حتى علمي بعدد الرصاصات التي مزقت جسدي، لكني أقسم أن دماءهم لن تسيل هباءً.

كانت تنتظر أن تسمع صيحات الصراخ التي اعتادت أن تنطلق في مثل هذا الوقت، لم تكن تعرف لِمَا كلُّ هذا الانتظار لشيء طالما يخيفها، ولكن اعتيادها عليه لمدة خمسة أعوام جعل من هذا الخوف شيئًا اعتياديًّا، لكن ليس مألوفًا لها، فهي لم تسأل عن أسبابه، بل كانت تطلق لنفسها العنان لتصور ما يحدث حتى قامت بسؤال أخيها الذي أخبرها أن مصدر ذلك الصراخ هو رجلٌ يسكن وحيدًا في البيت المجاور، قد استحوزت الشياطين على بيته، وأنه كل يوم يتلقى تعذيبًا قاسيًا منهم يجعله يصرخ ولا يستطيع الخلاص منهم.

أخذت تنظر بدقة لأغراض غرفتها، في وسط ظلام، يتخلله ضوء خفيض من النافذة فوق أنظارها على دميتها، التي ظلت تحدق بها لثوان في خوف لأول مرة، ثم سمعت صوته يصرخ كعادته فارتجفت، ثم وثبت من فوق سريرها في خفة ورشاقة، متجهة إلى النافذة، وصوبت أنظارها ناحية اليمين، فقد كان منزله على الجانب الآخر أمام بيت صديقتها إسراء، ويبعد بحوالي ثلاثمائة متر عن بيتها، كانت

تسمع صراخه في هذه المرة بطريقة مختلفة عن كل مرة، فقد كان يزلزل جدران قلبها، ويبعثر ما حاولت جمعه من قوى لتواجه هذه اللحظة.

انتهى الصراخ، بينما هي ما زالت لم تبتعد عن النافذة التي ترسبت أنفاسها على سطحها الزجاجي البارد، فرسمت بأصبعها على النافذة قلبًا منكسرًا وعلامة استفهام، وقالت بداخلها: رفقًا بقلبك، أي حياة تعيشها أنت، وأسمعك تصرخ بهذه القسوة... كفاك!

ذهبت إلى سريرها، ودعت الله أن يخلصه مما هو فيه.

جميله تلك الدعوات حينما تأتي من مجهول، لا نعلم عنه شيئًا.

أتى الصباح واستيقظت مليكة مزعورة، تصرخ بصوت مرتفع قد طرق مسامع أمها بالخارج، حضرت إلى غرفتها مسرعة؛ لتطمئن على ابنتها الصغيرة، فوجدت أنفاسها تتصارع في صدرها، وبعد قطرات العرق تنزلق على ذلك الوجه الشاحب:

– مالك يا حبيبتي اهدي.

– كابوس يا ماما كابوس.

– استعيذي بالله من الشيطان واهدي كدة.

بدأت الأم تتمتم ببعض الآيات وابنتها بين ذراعيها تتحسس نبضات قلبها الخائفة المتسارعة، وبعد لحظات قالت الفتاة لأمها في خوف شديد:

– حلمت بالبيت المسكون بالشياطين اللي جمبنا ده، وطلعلي الراجل اللي بيصرخ كل يوم، وكان دقنه طويلة وشعره طويل، وصرخ في وشِّي.

تعجبت الأم مما تسمع، وحدقت بها ابنتها حائرة، ثم قالت:

- مسكون بالشياطين؟!... مين اللي قال لك كده؟

- أحمد أخويا.

صدمت باطن يدها بجبهتها وضحكت لها، وهي تقول:

- يا اهبل يابن الهبلة! متصدقيهوش يا حبيبتي، ده بيت ظابط مراته وبنته ماتوا في البيت ده، ومن ساعتها وهو قاعد لوحده ومبيخرجش.

أخذت نفسًا عميقًا أخرجته في هدوء كبير، فقد ارتاح قلبها بسماعها ذلك، فقد كانت تشفق عليه كثيرًا، لكن أصبحت لا تعرف: أموت عائلته يؤلم أكثر أم أسطورة الشياطين تلك؟!

وأخذت تتساءل: كيف بعد مرور كل هذه الأعوام وما زال يصرخ بهذه القسوة؟! ألم يَزُرِ النسيانُ قلبه؟ ألم ترغمه الحياة في أن يكمل سباقه المرير، وتجعله يتذكر في طياتها أنه بشر ويجب أن يحيا، تكاثرت تلك الأسئلة المبهمة بداخلها مما دعاها أن تعد نفسها على إيجاد تفسير لكل ذلك ومساعدة هذا الشخص الذي تهابه كثيرًا.

دعكت عينيها حتى تفتحهما جيدًا، ووقفت للمثول أمام مرآتها التي كانت تعشق أن تأتي تلك المراهقة اليانعة، وتتزين أمامها، فقد رزقها الله بجمال ساحر، ووجه يحمل كل معايير البراءة والطفولة، بدلت ملابسها وأخبرت أمها أنها ستجلس النهار عند صديقتها إسراء، ولم تمانع الأم ذلك، ذهبت مليكة إلى بيت صديقتها، ورحبت بالموجودين هناك، ثم صعدت في حماس بالغ إلى غرفة إسراء وأيقظتها من النوم، وهي تقول لها:

– إسرااااء، أنا قررت أدخل البيت المسكون، قصدي بيت الجدع المجنون.

رفعتْ إسراء رأسها، وسحبت الوسادة من أسفل رأسها ثم ضربتها بها، وقالت لها:

– تعرفي تقعدي ساكتة، وتسبيني أنام.

دفعتها مليكة في مزاح ودلال، محاولة إفاقتها من النعاس الذي يغلب عليها:

– لا بقى، ما إنتِ هتصحي عشان أنا بتكلم جد.

هرعت لِمَا سمعته منها، فقد بدت جادَّة، ودفعت الوسادة بعيدًا عنها، ثم اعتدلت وجلست متربعة، وهزت رأسها رافضة ونافرة لقولها.

– لو بتهزري فأنا مش فَيْقَالِك، ولو مجنونة أنا مش حِمْلِ جنانك.

قالت لها، والحزن والأسى يغلب على صوتها:

– ده مريض نَفْسِي؛ بسبب موت مراته وبنته، لازم نساعده.

فردَّت إسراء في سخرية كبيرة:

– نساعده! جبتي حرف النون ده منين، وبعدين إنتِ بقى اللي هتخرجيه من اللي هوَّ فيه؟!

أومأت برأسها في حزم شديد، يدل على إصرارها على فعل ذلك، فطرقت إسراء رأسها برفق وهي تقول لها ساخرة منها مرة أخرى:

– مليكة، إنتِ بتخافي من خيالك، فمش معقوله هتروحي لحد المجنون ده برجليكى!

أمسكتها مليكة من يدها، وشدت وثاقها حتى ذهبت بها إلى النافذة التي كانت تطل على بيت ذلك الرجل، وقالت لها:

– هتشوفي اللي بتخاف من خيالها دي هتعمل إيه؟!

غادرت الغرفة وهي تجري في حماس كبير وشجاعة بالغة، بينما صديقتها تناديها، وهي لا تسمع إلا صوت جنونها الذي يوحي لها أن تقوم بما يجب عليها فعله.

وقفت أمام باب منزله، ثم التفتت إلى صديقتها التي تقف في النافذة تراقبها في إثارة وخوف شديد، وما أن نظرت أمامها وقبل أن تطرق الباب وجدته يفتح الباب ورأته كما جاء في حلمها، مما جعلها تصرخ بصوت مرتفع ووقعت مغشية عليها، فحملها ذلك الضخم إلى داخل بيته، وأجلسها على كرسيه الهزاز وأحضر لها كوب ماء، ثم أفاقها من ثباتها لتعيد هي الكرَّة، وصرخت عندما رأته، فوضع يده على فمها وسبابة يده الأخرى على أنفه قائلًا:

– شششششششششششش.

هدأت وما أن أزال يده من فوق فمها حتى عادت لتكمل صيحتها، فأعاد يده مرة أخرى لتسد فمها، وقال لها – قولت: شششششششش.

هزت رأسها موافقة على الهدوء.

انتظر للحظات ثم أزاح يده، ففتحت فمها متظاهرة أنها ستعاود الصراخ، ثم ابتسمت له بعينيها الساحرتين، ابتسم لها هو أيضًا، وناولها المياه، فشربت ثم وضعت الكوب أرضًا.

قام بحمل الكوب إلى المطبخ؛ لأنه دائمًا ما يكره الفوضى، وأمهلها ذلك لحظات، تنظر فيها لمحتويات البيت الذي بدا منظَّمًا

جدًّا، ليس كما تخيلته البارحة أنه بيت أشباح، وكان أكثر شيء قد لفت انتباهها هو ذلك البرواز الكبير، الذي يحمل صورة امرأة، وبجانبه برواز أصغر حجمًا، يحمل صورة طفلة صغيرة، دعاها ذلك لربط هذه الصور بما أخبرتها به أمها في الصباح، عاد إليها ووقف على ركبتيه، وسألها قائلًا:

– إنتِ مين بقى؟

تحسست بيدها لحيته الطويلة الغير مهندمة، وشاربه الذي غطى فمه، وحدقت بعينه الزرقاء الغارقة وسط ذلك السواد الداكن المحيط بعينيه، التي تراها تشبه أعين القطط، وبعد صمت طال لبضع ثوان تتفحصه فيها، قررت إجابته قائلةً:

– أنا مليكة.... جارتك.

مد لها يده ليصافحها وهو يقول لها:

– حسن مصطفى.

سمعا صوتَ طرقٍ عنيفٍ للباب، كاد أن يكسره، فقام بفتح الباب؛ إذ بوالد مليكة وشخص آخر ينطرحان أرضًا؛ لأنهما كانا يحاولان اقتحام البيت مندفعين، لم تستطع مليكة أن تكتم ضحكتها لما رأته من سقوط حدث أمامها.

توجه الأب إلى ابنته ليطمئن عليها، فوجدها مبتسمة وبحالة جيدة، وكان حسن في مزاج سيئ لدخول ذلك الرجل بيته، وبعض الأشخاص ممن يسكنون ذلك الحي دون إذنه، حاول تمالك غضبه ووقف صامتًا، بينما كان ذلك الرجل ينهره بقوة غير مبالٍ ضخامة جسده، فقالت مليكة بصوت مرتفع:

– كفايا، الغلطة مش غلطته يا بابا، أنا اللي جيت وخبطت على الباب، ولما فتح صرخت في وشه وأغمى عليَّا، وهو كتَّر خيره فوَّقني وهدَّاني، وكان بنا آدم ذوق جدًّا، ومأذنيش، ممكن نمشي بقا.

غادروا المنزل بينما كانت نظرات مليكة متشبسة بذلك الغريب، الذي خالف كل ما كانت تتوقعه، وكان لطيفًا جدًّا ولبقًا في تصرفاته، عادت إلى بيتها وقابلت لومًا شديدًا من أهلها، بينما هي لم تكن تبالي أي شيء سوى تلك السعادة العارمة بداخلها التي لا تعرف مصدرها، ربما أنها اقتحمت خوفها بكل شجاعة.

stop

لا تغلق عينيك حينما تخاف، فشجاعة المواجهة تمحو رعب المجهول فالاقتراب يكشف الحقيقة والاختباء يزيدها هولًا، دع نور قلبك يمحو ظلام خوفك.

جاء الليل ووقفت مليكة في النافذة تنتظر صيحات صراخ ذلك الرجل، ومر الوقت واقترب بزوغ الفجر، وحدث ما كانت تتمناه، فهو لم يصرخ هذه الليلة، فخلدت إلى النوم الذي لم يطل كثيرًا؛ حيث أيقظتها أمها لتذهب إلى المدرسة فقامت في خمول شديد، واستقلت باص المدرسة، وأثناء حصة الرياضيات غلبها النوم، فأخبر المدرس مديرة المدرسة حتى تستدعي ولي أمرها لتسأل عما يؤرق نومها، فهذه ليست المرة الأولى التي تنام فيها أثناء الحصص، عادت مليكة إلى البيت في ميزاج سيئ لذلك الاستدعاء الذي سيأتي لها بمزيد من اللوم والتنغيص، وقبل أن تصعد سلالم بيتها السبعة، قررت الذهاب إلى بيت جارهم لتطمئن عليه، فنظرت

حولها لترى إذا كان هناك من يراها أم لا، وسارت في خطوة مسرعة إلى بيته، ووقفت تطرق الباب ولا يجيبها أحد، أثار الأمر فضولها لمعرفة إن كان بالداخل أم أنه قد حدث المزيد من المعجزة بخروجه من المنزل فتسللت إلى جوار بيته تسترق النظر من النوافذ، التي كان عليها أتربة هائلة تتنافى مع نظافة بيته من الداخل، مسحت بمنديلها الزجاج لترى مشهدًا قد هرعت كثيرًا لرؤيته؛ حيث إن ذلك الضخم ملقى على الأرض والدماء من حوله، صاحت بصوت مرتفع جذب الناس إليها؛ ليروا ما كانت تشاهده هي؛ حيث قاموا باقتحام البيت والاتصال بالإسعاف فحملته إلى المشفى؛ حيث أوقفوا نزيف رأسه وأصبحت حالته مستقرة. فتح عينيه فوجد مليكة تنظر له مبتسمة، فبادلها الابتسامة.

– حَمْدِلله على السلامة يا أبو علي.

لم يُكَنِّه أحد بهذه الكنية منذ وفاة زوجته، مما محى البسمة من على وجهه، وحل محلها الحزن والأسى، دخل عليهما أحد أصدقاء حسن يُدعى أمجد، وهو يعمل في جهاز الشرطة وابن خالة زوجته، نفر حسن من رؤيته ولاح برأسه بعيدًا حتى لا ينظر إليه، فاقترب أمجد منه، وقال:

– للدرجة دي مش عايز تشوفني، دا أنا صاحب عمرك يا حسن.

– صاحب عمري عاجز زي منا عاجز، يوم ما تقدر تعرف مين عمل كده في مراتي وبنتي هبقى أبصلك يا أمجد، وأقدر أبص لنفسي في المرايا.

خفض رأسه إلى الأسفل وأخذ شهيقًا أخرجه ببطء، وقال له:

– مكنتش أتخيل إنك هتستسلم بالسرعة دي، كون إننا مقدرناش نعرف مين اللي عمل كده، دا ميخلكش تسيب الخدمة، فكر يا حسن أنت أحسن واحد هيعرف يجيب حق مراتك وبنتك وارجع الخدمة تاني، حرام ظابط زيك يتحول لرجل كهف مش باين من وشه غير عنيه المكسورة، إنه مقدرش يجيب حقه.

فاعتدل حسن، ونظر له في غضب شديد، بينما مليكة تنظر إلى كليهما في استرهاب كبير.

– أنا همشي يا حسن، بس عايزك تعرف إن حتى الداخلية لما قفلت القضية أنا لسه بحقق فيها، وصدقني مش هسكت إلا لما نجيب حقهم، ومتنساش سلمى زي ما كانت مراتك كانت بنت خالتي.

انصرف أمجد مغادرًا، بينما حسن ساكن وعيناه تملؤها الضجر الشديد، فوضعت مليكة يدها على كتفه محاولة مواساته، فأمسك يدها بقوة، ونظر لها في غضب، ففاجأته بابتسامتها التي تخبره أنها لا تخاف منه، فشقت تلك البسمة بحور الآلام في قلبه، ورسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة؛ لأنه رأى فيها ابنته، وسألها قائلًا:

– إنتِ عندك كام سنة؟

– قربت أكمل ١٦ سنة.

– صغيورة أوي.

وقفت محاولة التباهي بقدراتها ومازحته قائلة:

– الصغيورة دي أنقذت حياتك.

رد عليها بنبرة تملؤها الحزن والهدوء، وهو يهز رأسه هزة خفيفة:

– يا ريتك ما كنتي أنقذتي حياتي!

– آآه قول بقى إنك بتهرب، لكن على مين، ما دام أنقذت حياتك، يبقى حياتك بقت ملكي، ولازم تحققلي ٣ طلبات.

بَدَتْ جادة جدًّا فيما تقول، بينما كان يراها هو ليست سوى محض طفلة قد خرجت من عالم ديزني لاند، وتحاول أن تخفف عنه ما هو فيه، أظهر لها أنه موافق على ما تقول، فبدأت حديثها وهي تسير أمام سريره ذهابًا وإيابًا، تفكر بعمق مما ستطلبه منه، ثم فتحت عينيها جيدًا ورفعت أصبعها، وقالت له:

– أول حاجة نبقى صحاب.

فكر هو للحظات ثم أومأ برأسه موافقًا مما أسعدها كثيرًا، وعادت لتجلس على حافة سريره، وقالت له:

– احكيلي بقى.

دخل والد مليكة في وجه عابث، ووقف أمام حسن ووضع كلتا يديه على كتف ابنته، وقال له في جمود:

– حمدلله على السلامة إحنا عملنا الواجب وزيادة، منتمناش نتقابل تاني.

سحب ابنته من يديها، بينما هي كانت غاضبة بشدة، وأفلتت يدها من قبضة أبيها، واقتربت من حسن وابتسمت له ابتسامتها المعهودة، وقالت له:

– آسفة جدًّا يا أبو علي، بس حمدلله على السلامة، وهشوفك قريب.

فردَّ أبوها في ضجر شديد لما سمعه من ابنته:

– مفتكرش هتشوفيه تاني.

وما أن غادرت مليكة غرفته حتى بدأت في البكاء؛ حيث دام بكاؤها طوال الطريق، وحين وصلت بيتها صعدت غرفتها، وامتنعت عن الطعام إلى نهاية اليوم، وحين جاء اليوم التالي لم تذهب إلى مدرستها، وما أن جاء الليل حتى فتحت عينيها فوجدت نفسها على سريرها، وبجانبها الطبيب فقد أغشى عليها بسبب حدوث هبوط حاد في الدورة الدموية، ومعلَّقًا بيدها المحاليل الطبية، ومحاطة من أسرتها المكونة من أبيها وأمها وأخيها الأصغر منها بعام؛ حيث بدا أبوها يحدثها في هدوء شديد:

– ينفع اللي بتعمليه فينا ده، وكل ده عشان مين؟! عشان المجنون ده!

ردت باندفاع شديد:

– حسن مش مجنون، يا بابا حسن إنسان.

أخرج زفيرًا قويًّا، وبدأ يضرب كفيه:

– هنعيده من تاني يا مليكة!

– قوللي إنت هتعمل إيه يا بابا، لو لقيت واحدة أد بنتك واقعة قصاد باب بيتك! مش هدَّخلها بيتك، وتحاول تسعفها، فين الغلط اللي هو غلطه؟!

بعدين ده شخص محترم، مراته وبنته ماتوا في بيته بسبب شغله، وحبس نفسه في بيته لما مقدرش يجيب حقهم، حط نفسك مكانه، هتحس بإيه لو أنا وماما موتنا بنفس الطريقة، وانت شايف إنك انت السبب، ومش قادر تجيب حقنا، ساعتها الصراخ اللي بيصرخه مش هتشوفه في عينك جنان، هتشوفه حرقة قلب على أغلى ناس في حياته.

نظر الأب لابنته بغرابة! ولم يستطع الرد عليها، فلأول مرة يبدو كلامها مقنعًا، فانصرف من أمامها.

* * *

رأت عيناي ضوء الشمس الذي لا يشرق على قلبي منذ سنين، حينما خرجت من باب المشفى، ولمحت عربة الشرطة تنتظرني، وحين اقتربت وجدت أمجد يجلس بداخلها، سِرْتُ من جانبها، كأنني لم أره، فأمر السائق أن يسير ببطء جانبي، وقال لي:

– مش عايز توصيلة يا حضرت الظابط.

لم آبه لما يقول، حتى نزل من السيارة وسار بجانبي، وقال لي بصوت مرتفع:

– طب بصلي حتى وأنا بكلمك.

اضطررت إلى النظر إليه بعد أن كللت من ملاحقته لي، وسألته عما يريد، فاقترب وعانقني وهو يهمس في أذني:

– عايزك أنت يا صاحبي.

لم أرفع يدي حتى من راحتها، ورددت عليه في خشونة:

– كان زمان يا أمجد بيه، دلوقتي مبقاش ليا صحاب، اللي جوايا مبيحرقش حد غيري أنا، بجد ندمان على خروجي من بيتي.

تركته وأكملت سيري، فقال لي بصوت مرتفع:

– أنت ليه محملني ذنب موتهم كأني أنا اللي قتلتهم.

ألتفتُّ إليه وقولت له في حدة بالغة:

– لو انت اللي قتلهم مش هحملك ذنب موتهم، لا، أنا ساعتها مش هارحمك،

استقليت سيارة أجرة إلى بيتي، وما أن فتحت الباب وجدت ظرفًا أبيض، قد وضعه أحدهم من أسفل الباب، سارعت في فتحه، فوجدت بداخله ورقة مكتوبًا بمنتصفها: (حمدلله على السلامة يا أبو علي).

* * *

الفصل الثاني

(وليس الحب في: كم مرة تقابلنا؟ الحب في: كم مرة التقت أرواحنا دون أن نتقابل؟)

– سلمى، تعالي احلقيلي دقني.

حضرت إلى الحمام، وشدت قميصي لأسفل قليلًا حتى تصل إلى قامتي المرتفعة، وتلامست جبهتينا وهي تقول لي في حزم:

– أنا عودتك على الدلع على فكرة.

فالتف ذراعي حول وسطها، وحملتها لأعلى:

– اطلعيلي مش انا اللي هنزلك، وبعدين ومالوا لما ادلع من مراتي حبيبتي.

غمزت لي بعينها مع ابتسامة رقيقة، وقالت:

– ومين يدلع الكتكوتة اللي تحت، اللي عايزة تلحق باص المدرسة.

فاقتربت أنفاسي من أنفاسها كثيرًا، وأصبحت على أعتاب شفتيها، وقولت لها:

– إنتِ بردو.

فسمعنا صوت ملاكنا الصغير يقول لنا:

– بتعملوا إيه.

نظرت لها وانا مبتسم وقولت لها – بقنع ماما تحلقلي دقني

فردت ندى في خفة ودلال كبير دائما ما اعشقة من طفلتي الصغيرة

– أنا هحلقهالك أنا يا بابي.

فأنزلت أمها وحملتها هي وتظاهرت بالشدة والحزم، وأنا أشير لسلمى بأصبعي إلى خارج الحمام:

– اتفضلي اطلعي برة، ندى خلاص هتحلقلي دقني.

قلدتني طفلتي وأشارت لأمها بأصبعها، وأخرجت لها لسانها حتى تكيدها. فضحكت سلمى، وأخذت ندى عن ذراعي، وقالت:

– يالا يا دلوعة بابا، ورانا مدرسة، مش عارفة آخرة دلعه فيكي إيه.

وبينما تأخذها أمها إلى الباب حتى تركب حافلة المدرسة، التفتت إلى صغيرتي، وقبلت يدها ولوحت لي مودعة، وما أن أغلقت سلمى الباب حتى مازحتني قائلة:

– تعلالي بقى يا مدلع، شكلك هتتأخر عالشغل انهاردة.

سقطت الدموع من عيني، وأنا أقف أمام مرآة الحمام أتذكر ذلك المشهد المميت، مبتسمًا في ظل تلك الحالة من الشجن والحزن، التي قد غرقت فيها وشعرت بها تقف جانبي، ولم أكن أعرف هل أنفاسها حولي أم ما زالت أنفاسها بداخلي، تحسست لحيتي الطويلة التي

قاربت على احتلال صدري وشعري الطويل الغزيز الغير منضبط، الذي غزاه بعض الشعيرات البيضاء، التي لم تكن موجودة من قبل، وبدأت أرى كم بدلتني الأيام إلى شخص منتهِي الصلاحية، فكوْني لم أستطع الانتقام جعلني أنتقم من نفسي ولم أعد أهتم بهيئتي كالسابق، فحياتي قد فقدتها وأنا على قيد الحياة، سمعت طرق الباب، نزلت إليه فوجدت الطارق مليكة، وحين همت للدخول وجدتني أمنعها عن ذلك قائلًا:

– ارجعي يا مليكة، عشان بباكي ميزعلش منك، ومتحصلش مشاكل.

حاولتْ التأثير على حتى أسمح لها بالدخول قائلة:

– مش احنا بقينا أصحاب يا حسن، وأنا محتجالك جدًّا.

أغمضت عيني ثم هززت رأسي مستسلمًا لها، ثم تنحيت جانبًا، ولوحت لها بذراعي إلى الداخل. دخلت في سعادة عارمة تباغت ملامحها الرقيقة، وجلست على الكرسي الخاص بي، فقلت لها في جدية وحزم:

– خير؟!

– أنت بتقابل ضيوفك كدة؟

ضربت كفي وأنا أقف أمامها، وأجيبها بصورة حادة قائلًا:

– معنديش غير قهوة.

– أنا أكتر حاجة بحبها القهوة.

ابتسمت بنصف وجهي متعجبًا، وقلت لها:

– مش صغيرة على القهوة؟!

كان ردها عليَّ بتلقائية بالغة، كأنما تحاول أن تصل إلى شيء:

– وإنت مش صغير على الحزن اللي أنت فيه.

– الحزن ملوش سن.

وقفت أمامي تتحدث كأنها شخص ناضج على الرغم من أنها لم تتم السادسة عشر.

– أنت إنسان يا حسن، ارحم قلبك شوية، فكرك إن مراتك وبنتك ميعرفوش اللي أنت فيه دلوقتي. أنت بتعذبهم بحالك ده زي ما أنت بتعذب نفسك.

انصرفت من أمامها ذاهبًا إلى المطبخ، وبدأت في تحضير القهوة، لكنها لم تأبه لذلك، وتبعتني ووقفت عند مدخله تكمل حديثها.

– متقفلش عينك في اللحظة اللي لازم تفتح فيها، ومتهربش في الوقت اللي لازم تواجه فيه.

أثار دهشتي ما أسمعه من كلام فلسفي يخرج منها، يتنافى مع ملامحها الطفولية وعمرها الصغير، نظرت لها متعجبًا ثم تابعت قدح القهوة وهو يغلي، بينما هي تنتظر أن تسمع مني أي شيء فقلت لها:

– تفتكري هتفرق إن افتح عيني والدنيا ضلمه.

– أكيد هتفرق، مِسير الدنيا تنور، بس إنت لو مغمض هتعرف إزّاي إنها نورت.

كانت كلماتي تحمل اليأس والاستسلام، لكن لم يقلل من عزيمتها في محاولتها لمساعدتي.

– مش هتنور تاني.

– طب إيه رأيك تحكيلي يا حسن، مش احنا بقينا صحاب.

حملنا القهوة سويًّا، وجلست على مقعدي المعتاد، بينما هي فضلت الجلوس أرضًا أمامي متربعة تسند خذيها على قبضتيها، وتقول لي في براءة:

– يالا احكي.

– احكي من أول ما كنت في الجنة، ولا أول ما اترميت في النار!

منذ ١٨ عام:

لم تبدأ حياتي إلا حينما رأيتها، فقد كانت الربيع لزهرة قلبي التي عانت من الشتاء، ولم أكن أفكر بشيء سوى عملي، فقد كنت الأول على دفعتي أثناء سنين الدراسة بالكلية؛ حيث كانت هي شغفي منذ الصغر، فقد حلفت أن أغدو منذ اليوم الأول لي في هذه الكلية أن أغدو الضابط الأفضل يومًا ما، وأن أحقق العدل وأنصر المظلوم، وما أن تخرجت بدأت أبذل قصاري جهدي في عملي، بينما أمي كانت تفكر في زواجي على الطريقة التقليدية القديمة، وبين اليوم والتالي تجعلني أشاهد صور أبناء صديقتها، وكنت أتعامل مع ذلك بمزاح وسخرية لم أكن أفكر في الزواج، وكان كل شغفي هو عملي فقط، الذي جعل السنوات تمر بدون أن أشعر بها، وربما شعرت بها ولم أبالي فقدانها في سبيل هذا العمل السامي الذي أُعرِّض فيه نفسي أنا وكل من مثلي إلى الموت كل يوم دون أن نبالي، إلى أن بلغت السادسة والعشرين، وفي إحدى الأيام عدت من العمل، وفوجئت بأمي تبكي، فهرعت لذلك وجلست بجانبها، أسألها عما أصابها، فأخبرتني أنها تشعر بقرب

نهايتها، وتريد أن تسعد بزواجي لتطمئن على، وأخبرتني أيضًا أنها تشعر بالوحدة الشديدة منذ وفاة أبي، وتريد أن أتزوج وأجلس معها في البيت وأن أنجب لها أطفالًا حتى تكنى بجدتي، وعلى الرغم من شعور الضيق الذي كنت أشعر به إلا أني وافقتها لأني لا أملك غيرها لأسعدها فهي أغلى مَن بحياتي، وبعد أن دخلت غرفتي لأنام خرجت؛ لأني قد نسيت هاتفي بالخارج، وبالمصادفة سمعتها تحدث صديقتها بسعادة شديدة قائلة:

– أيوه يا ولاء، الخطة نجحت ووافق، هستناكي بكرة، هو أجازة من الشغل وقولي لعروستنا تجهز.

وفي الصباح، جاءت أمي لتوقظني، وعلى شفتيها ابتسامة عريضة:

– إصح يا حسن، طنتك ولاء عندنا.

فتحت عيني إلى آخرها، ثم عوجت فمي بعض الشيء، وقلت لها في سخرية:

– طنت ولاء مين! وأنا مالي.

ردت وكفا يديها يتعاركان ضربًا في صباحى+:

– ما هي معاها بنتها نيفيهان.

– باتمان مين!

– يووووه نيفيهان يا حسن، نيفيهان إوعا تتلغبط.

ثنيت الوسادة على رأسي وأنا أتقلَّب يمينًا وأقول لها:

– متخفيش مش هبوظ الدنيا لأني هكمل نوم أصلًا.

وكزتني بكتفي وهي تقول في غضب مكتوم حتى لا يتحسس ذلك الضيوف بالخارج:

– إنت مش قولتلي إنك موافق تتجوز، جَي دلوقتي تحرجني.

أزلت الوسادة عن وجهي واستقمت بظهري وقلت لها:

– هو أنا أقولك موافق أتجوز أصحى ألقى طنت ولاء وبنتها فندام برة.

– يا بني نيفيهان (ني في هان) بسيطة أهيه.

– دي أسامي أدوية يا ماما.

شعرت باليأس مني، وجعلها ذلك تلجأ إلى سلاح المرض؛ حيث هدأت فجأة وأمسكت بقلبها، مما دعاني للقلق حتى وإن كنت أشك في شعورها بالمرض في هذه اللحظة، وفي النهاية انسقت خلف ما تريد، وجعلها ذلك في صحة جيدة بعد موافقتي، مما جعلني أنفجر ضحكًا، وودعت غرفتي وعلى وجهها ابتسامة رضا فور انصياعي لمطلبها، قمت بتغيير ملابس النوم، وخرجت لأقابل ضيوفها فسلمت على طنت ولاء وابنتها الحسناء التي كانت تشبة أمها كثيرًا. جلست صامتًا لا أتحدث، بينما الأمهات تنظر لبعضها وتضحك ويحسبون ذلك خجلًا، فحاولت أن أقول شيئًا يلقى استحسان أمي فنظرت إلى السيدة التي تجلس إلى جانب أمي وأنا أشير بيدي لها إشارة خفيفة، وأقول:

– بس إنتِ مقولتليش يا ماما إن العروسة عسل أوي كدة.

فنظر الجميع لي باستغراب، وقالت لي أمي:

– دي طنتك ولاء يا حسن، بنتها قاعدة جمبك.

ضحكت أمي لتداري علَي، قلت لتبدو مزحة ليس أكثر، وضحك الجميع من بعدها، إلا أنا فقد شعرت أنني أحمق كبير، فقالت أمي:

– هو دايمًا كده يا ولاء يفضل يعاكس صحابي، ودمه زي العسل، بيحبوه جدًّا،

مر الأمر بسلام ولم يمر وقتًا طويلًا في ظل ذلك الحديث الممل، الذي أصطنع فيه الضحكة حتى قالت أمي:

– تعالي يا ولاء أفرجك على صورنا أنا وحسن في المصيف.

كيدهن عظيم، تفعل ذلك حتى نحظى أنا والفتاة ببعض الخصوصية، لكني وقفت لأذهب مع أمي فسألتني قائلة:

– رايح فين يا حسن؟

– أتفرج على صور المصيف.

أقتظت عيناها، وجزت على أسنانها قليلًا، ثم قالت لي:

– لا خليك إنت هنا، أقعد مع نيفيهان شوية.

شعرت الفتاة ببعض الإحراج من رغبتي في المغادرة، مرت بعض الدقائق لا نحدث فيها عن شيء مهم، فكل ما أفعله أنا هو النظر لها، وقول كلمة (نورتي)، وكانت تبادلني هي النظرات المصحوبة بابتسامة، وكلما طال الوقت كنت أشعر بحماقة أكثر، فقد سمعت كثيرًا عن أنواع الحب، ذلك الذي يتحول من صداقة إلى حب، وذلك الذي يأتي كما يقولون: (من أول نظرة)، أما عن هذا النوع من الحب الذي

تحاول أن تقنعني به أمي؛ وهو يدعي الحب من أول مجيء ولاء وابنتها فهو جديد على نظريات الحب، وأنا أول فئران التجارب لهذه التفاهة التي أفعلها إرضاء لأمي.

– شكل مامتك بتحبك أوي.

بادرتني هي بالسؤال وكانت إجابتي رسمية جدا

– آه جدًّا.

سرحت قليلًا في كوب الليمون الذي أمامي وقطرات المياه التي تتدلى على سطحة الخارجي البارد مما جعل بضع الدقائق تمر في صمت وشعرت أنه قد جاء دوري وأنه يجب على أن أكسر ذلك السكون بسؤال يجعلها تشعر أني مهتم بها، وأن أخرج من عباءة الضابط تلك التي تخيم على جلستنا

– بتعرفي تطبخي؟

لم أكن صائبًا في توجيه الأسئلة، فقد شعرت بغرابتي في كون ذلك أول سؤال أوجهه لها، فقالت لي:

– طبخ !!! لا، لا مبعرفش أطبخ.

أكملت هي مبادرة الأسئلة قائلة:

– إنت إية أكتر حاجة بتحبها في حياتك.

– الرز بلبن.

– نعم!!

كانت إجابتي صادمة، وظهرت على ملامحها العابثة، فلم تكن تقصد بسؤالها عن الأكل بل كانت تقصد الحياة.

– أنا مقصدش في الأكل.

– آه آسف، شغلي أكتر حاجة بحبها شغلي.

– وبتفضل بقى تقتل في الأشرار وكده.

مزحت مزحة سخيفة ثم ضحكت عليها، فقلت لها ساخرًا بصوت منخفض:

– يخرب بيت سبيستون اللي بوظت دماغكوا.

– بتقول حاجة يا حسن، لا خالص يا سفيان.

غضبت بشدة لأخطائي في نطق اسمها، وقالت لي بنبرة حادة:

– سفيان مين، اسمي نيفيهان.

– مش مهم كلها أسماء ربنا، في صول عندنا اسمه سفيان، بقوللو يا نيفيهان ومبيضيقش!

نهضت من مقعدها وأمسكت بحقيبتها في ضجر، ونادت على أمها فأسرعت بالمجيء، وقالت لها:

– في إيه يا بنتي بس.

– يالا بينا نمشي.

اتجهوا ناحية الباب ولحقت بهم أمي وحاولت أن تمنعهم عن الرحيل، لكنها فشلت فعادت إلى، بينما أنا أجلس على الأريكة وأمسك بجهاز التحكم للتلفزيون وأفتحه. وقفت أمامي ووضعت يدها في وسطها، وقالت لي في غضب شديد:

– يا بني إنت عايز تموتني مفروسة، كل ده عشان عايزاك تتجوز، مالها بنت طنتك ولاء.

– دي هبلة يا ماما، بعدين سيبيني أنا أختار.

ضربت كفيها وذهبت إلى مطبخها، بينما أنا جلست أنتظر مباراة نادي الأهلي، فأنا أعشق ذلك النادي العريق صاحب البطولات، وقبل بدء المباراة، سمعت صوت زجاج ينكسر، فأسرعت إلى مصدر الصوت فوجدت النافذة مكسورة إثر ارتطام كرة بها، وبعد لحظات أحاول فيها تهدئة غضبي، قررت أن أخرج إلى من كسر زجاج النافذة، وما أن فتحت الباب انفتح معه باب قلبي، وحينها اكتشفت أن لقلبي استخدامًا آخر غير جعلي على قيد الحياة، فكانت تقف أمام الباب فتاة مجعدة الشعر بعض الشيء، بشرتها تقترب في اللون من شعرها البرتقالي، وعيناها واسعتان، وأنفها حادة، وشفتاها مستقيمتان، ويعلو أنفها بعض النمش الخفيف، ترتدي معطفًا أسود، ويلتف حول رقبتيها شال صغير من القماش، وملامحها العابثة التي تحتل وجهها لم تقلل من جماله شيئًا، وكانت تنظر لي بغضب شديد بينما أنا هائمٌ في تفصيلها كالأبله، لا أدري شيئًا، مدت يدها لي فصافحتها، وحين لامست يدها ذهب غضبي أدراج الرياح.

– إنت يا جدع إنت أنا مبسلمش عليك أنا عايزة الكورة.

– كورة مين.

لوحت بيدها أمام عيني مما جعلني أتوقف عن ملاحقة قلبي الذي يسرق مِنْ داخلي وأنا لا أعلم، فقد كانت تلك أول فتاة تأخذني مني دون أن أشعر أو أبالي. شعور جديد لم أكن أعرف عنه شيئًا إلا حينما رأيتها.

– الكورة اللي كسرت إزاز بيتكم.

– آه آه طب اتفضلي وأنا هجيبهالك.

تعجبت كثيرًا فقد أخبرها الأطفال بالخارج أن ذلك منزل ضابط شرطة عصبي للغاية، وأنهم يخافون خروجي إليهم أو ذهابهم لي لإحضار الكرة.

وحينما قابلتني لم تجد سوى أبلهٍ ينظر إليها بعمق ويحدثها بكل هدوء. دخلت وطلبت منها الجلوس، ثم ذهبت لإحضار الكرة إليها فخرجت أمي من مطبخها بعد سماع فتح باب البيت، يبدو أنها ظنت أن ولاء قد عادت.

– في إيه عندك يا حسن.

وما أن رأتها حتى أصبحت سعيدة ورحبت بها بحرارة، فأخبرتها أن زجاج النافذة قد انكسر وقد جاءت لتأخذ الكرة، فقالت هي:

– آسفة جدًّا يا طنت بس الأطفال كانوا خايفين ييجوا يطلبوا الكورة منه عشان الإزاز اللي اتكسر، بس أنا هدفع تكاليف تصليحه.

– عيب يا بنتي إنتِ جايه تشتمينا في بيتنا ولا إيه، وبعدين يخافوا ليه هو فيه في طيبة حسن ابني.

بدأت أمي تعرفها بنفسها وبي فوضعت يدها على صدرها، وفقالت:

– أنا طنتك فاتن، وده حسن ابني ظابط شرطة أد الدنيا.

فابتسمت ابتسامة خفيفة، زادت من جمال وجهها المشرق، ثم قالت:

– اتشرفت بيكوا، أنا سلمى.

وبعد حديث طال بضع دقائق بينها وبين أمي، كانت تحاول فيه أمي جعلها تتحدث عن نفسها، وعلمت حينها أنها ابنة اللواء المتقاعد بدر المصري، وأن منزلها ليس ببعيد عنا، وقد كان بالحي المجاور، وكانت هنا لدعوة بعض من الأشخاص لحفل اليوم. لم أكن لأفعل شيئًا سوى التمتع بذلك الصمت بداخلي، وشعور اللا مكترث بأي شيء دونها.

قامت أمي لتضايفها بينما أجلس أنا وهي، ينظر كلٌّ منا للآخر في خجل، فقالت هي:

– آسفة جدًّا لو كنت بايخه معاك، بس أنا اضايقت لما لقيت الأطفال خايفين منك عشان عصبي.

– أنا عصبي جدًّا بطبيعة شغلي بس مش لدرجة أضرب طفل عشان كسر الإزاز، أنا ممكن أعلقه من قفاه، أحدفه بحاجة.

ضحكت ويدها تداري فمها خجلًا، ثم قالت لي:

– كان نفسي أطلع ظابط، بس بابا محبش كده.

تعجبت لما سمعت، فكيف لي أن أتخيل ذلك الوجه الملائكي ببذلة الضباط؟! فضحكت ثم نظرت للأسفل، فقالت لي:

– إيه اللي بيضحك؟

– مش متخيل الوش الكيوت ده يبقى ظابط.

كشرت وحاولت أن تبدو حازمة، ثم قالت لي وهي ممسكة بقصاصة شعرها

– لا ميغركش شعري البرتقاني ده، أنا لما بتعصب ببقى صعبة جدًّا.

قالتها ثم ضحكت، فضحكتُ معها ولم أعد أستطيع أن أتحدث، وعيني تقابل عينيها، فإن نظرت لها تقول عيني ما لا ينطق لساني، وإن نطقت لا أستطيع أن أنظر لها.

أطالت أمي غيبتها قليلًا، ثم عادت ومعها كوب العصير، وحينما رأتها سلمى وقفت لتودعها؛ لأنها تأخرت فاليوم عيد ميلاد أبيها، وتريد أن تحتفل به، ويجب عليها أن تشتري بعض الأشياء للتحضير لتلك المناسبة.

وجدت نفسي أقول لها بكل جراءة:

– لو محتاجة مساعدة أنا ممكن أوصلك بعربيتي مكان ما إنتِ عايزة.

– لا لا، أنا مش عايزة أتعبك معايا.

– لا مفيش تعب ولا حاجة.

ذهبت لتغيير ملابسي، بينما أمي لم تصدق ما تسمعه مني؛ حيث كادت عيناها أن تخرج قلوبًا صغيرة من فرط السعادة، بدلت ملابسي وأخذت مفاتيح سيارتي، سبقتني هي بالخارج وأعطت الكرة للأطفال، وقبل أن أخرج سمعت صوت أمي تقول لي في سخرية كبيرة وهي مبتسمة:

– طب والإزاز يا حسن.

ضحكت لها وأنا أشير لها بيدي ناحية النافذة كوني غير مهتم.

– خلي نيفيهان تيجي تصلحه.

ركبنا السيارة سويًّا ووصلنا إلى مركز تجاري لتتبضع ما تريد، أخرجت ورقة كبيرة مليئة بالأشياء، فنظرت إلى هذه القائمة الطويلة

بزهول؛ حيث كاد أن يسقط فكي عن وجهي من المفاجأة، ووضعت يدي على كتفها، ومسكت بيدي الأخرى يدها لأودعها قائلًا:

– فرصة سعيدة يا سلمى.... أستأذن أنا.

وما أن استدرت لأرحل رأيت وجه أمي الغاضب في مخيلتي يؤنبني على فعلتي، فوقفت مكاني وجرى بداخلي حديث بيني وبين أمي:

– مش نافع، برضو هتسيبها وتمشي، إنت إيه مفيش فايده فيك.

– إنتِ مش شايفة الطلبات اللي في إيديها أد إيه.

– مهي لازم عشان تعجب بيك تحس إنك جدع.

– جدع بس مش كده يا حاجة، دي جايه تجيب المول كله.

– حسن، اسمع الكلام يا بني، ومتغلبنيش معاك، أنا تعبانة وقلبي وجعني.

– بس يا ست الكل قبل ما تقولي كل الكلام اللي أنا حافظه ده، خلاص مش همشي.

سمعت صوت سلمى يناديني.

– رايح فين يا حسن.

– لا دا أنا رايح أجيب لنا حاجة نشربها.

بدأنا في التبضع بينما أنا من كنت أحمل الحقائب، وهي كل ما يشغل بالها أن لَّا تنسى شيئًا، وبعد حوالي ساعتين ونصف.

– سلمى تقريبًا إحنا نسينا نشتري الراجل بتاع الكاشير.

عقدت حاجبيها ونظرت لي نظرة حامقة، ثم ضحكت لي بعينيها، فجعلتني أنسى ما أعانيه هنا، وقالت لي بلطف:

– خلاص مش باقي غير الديزيرت.

خرجنا سويًّا أنا أحمل كل شيء وهي تحمل فقط قالب الحلوى، وضعنا كل شيء بالسيارة، وسرنا إلى بيتها، وحين وصلنا طلبت من العاملين بالفيلا أخذ المشتريات إلى الداخل، ووقفنا أنا وهي سويًّا لا نتحدث نبتسم فقط، كنت أعلم أنها تريد إخباري بشيء، وأنا لم أكن أود الرحيل، ومن ثم بدأت تتلجلج في الحديث قائلة:

– لو...اا... حابب يعنى... تحضر معانا عيد الميلاد... هتبقى... حاجة.. حلوة.

وتحولت حينها من ضابط شرطة إلى نافخ بالونات، يضع طرطورًا فوق رأسه، ويساعد أصدقاء سلمى في تجهيز زينة عيد الميلاد، وهنا تفاجأت، عندما قابلت أمجد وعلمت أن سلمى تكون ابنة خالته، فقد كنت أعرفه معرفة سطحية في كلية الشرطة، وكنت أسبقة بدفعتين، وعندما رأتنا سلمى نتحدث سويًّا جاءت إلينا قائلة:

– إنتوا تعرفوا بعض ولا إيه؟!

فأجابها أمجد:

– ومين ميعرفش حسن مصطفى، دا كان أشهر حاجة في كلية الشرطة. ودلوقتي في جهاز الشرطة صيطه مسمَّع.

– دا انت طلعت حاجة كبيرة أهوه يا ابو علي.

شعرت بقليل من الإحراج، وقبل أن أنطق أي شيء زاد إحراجي بسؤال أمجد، وهو يشير إلى البالون الغير مربوط بيدي؟!

– هو إيه دا يا حسن؟!

تركت البالون يخرج هواءه ووضعت يدي على ظهره لنسير إلى الأمام وأنا أقول:

– لا ولا حاجة.

ضحكت سلمى ثم تركتنا نقف سويًّا نتحدث، بينما هي أسرعت في تجهيز كل التحضيرات، وما أن حضر اللواء بدر المصري حتى قمنا بإطفاء الأنوار، ومن ثَمَّ انفجرت المدافع الورقية، وأشعلت الأضواء وجرت سلمى ناحية والدها وعانقته.

رحب هو بالجميع، ومن ثم أخذتني سلمى إليه لتعرفني عليه:

– بابا، عايزة أعرفك على حسن ظابط شرطة، وجارنا وصديق أمجد.

مد يده وصافحني بقوة، قائلًا:

– أهلًا وسهلًا، إنت ظابط شرطة؟

– أيوة يا فندم، النقيب حسن مصطفى الشواف عمليات خاصة.

– إنت ابن اللوا حسن الشوَّاف الله يرحمه.

– الله يرحمه.

دار حديث تعارف بسيط بيني وبين والدها، ومن ثَم انصرفت وجلست بعيدًا عن ضجة الحفل، وبعد انطفاء الشموع استأذنتهم في الرحيل، تبعتني سلمى إلى سيارتي، مدت يدها لتصافحني وهي تقول لي باسمةً:

– شكرًا يا حسن على وقوفك جمبي النهار ده.

– شكر على إيه بس، كل سنة وبباكي طيب.

صمتنا للحظات خجلت فيها أن أطلب رقم هاتفها إلى أن ضحكت هي وقالت لي:

– هتفضل مكثوف كده كتير... اكتب عندك.

غادرت وقلبي يرقص من السعادة، ففي ذلك اليوم اكتشفت حياة جديدة خارج نطاق عملي، أو بالمعنى الأصح الحياة قبله لم تكن قد بدأت بعد!

– هيييييح يا أبو علي، ده انتوا كنتوا حلوين جدًّا.

أشرت لها حتى تنهض، وأنا أقول لها في هدوء:

– يالا يا مليكة عشان تروحي.

– بس انت مسألتنيش، أنا كنت محتجاك في إيه؟

صمتت ثم أكلمت حديثها متلعسمة تحاول ترتيب ما ستقوله لي:

– بص هو أنا أخدت استدعاء ولي أمر عشان بنام في الحصص، وعايزاك تيجي معايا لإني مش هعرف أقول لبابا.

هززت رأسي رافضًا، ضمت كلتا يديها، ووضعتهما تحت ذقتها، واتسعت عينها إلى آخرها، والتوت شفتها السفلى إلى أسفل، وأصبحت أشبه بشخصيات الكارتون، وهي تقول لي بصوت رفيع جدًّا مصطنع:

– أرجوك.

ضحكت ولم أستطع أن أبدو جديًّا، وأبعدت أنظاري عنها، كلما نظرت إليها أجدها سعيدة برؤيتي أضحك وظلت مصرة على مطلبها،

وأنا أكثر إصرارًا على الرفض إلى أن يئست، نظرت لي النظرة الأخيرة التي تحاول فيها استعطافي، ثم استدارت لتذهب إلى الباب في بطء شديد، ناديتها فعادت تجري ناحيتي وعانقتني، وقالت:

– كنت عارفة إنك هتوافق يا قطتي.

ابتسمت وعيني دامعتين فقد رأيت فيها طفلتي الصغيرة حينما كانت تعود من مدرستها، وتجري ناحيتي مسرعة لتعانقني قبل أمها، رأيت في عناقها حياة قد ولَّت، ولم يبقى لي منها سوى موت الذكريات، وشعرت بها تربّت على جراحي التي لا يداويها النسيان ولا يطفئها الزمان، عانقتها وأنا أمسح دموعي وأخبرها أني سألبي رغبتها.

* * *

الفصل الثالث

(في وقت ما، وبطريقة غير مألوفة، سيعطى الله لك فرصة لتحيا مجددًا «أمنية عمر»)

هناك ثقب بروحي صنعه الفراق، وتوالت من بعده الآلام كأمطار الشتاء التي سقطت ضحايا صراع السماء، فقد بدأ الأمر بالاحتراق والغضب الشديد، ثم أصبحت شخصًا منكسرًا تهرب دموعه على أتفه الأشياء، ثم منطفئًا منعزلًا عن العالم، ثم أصبحت قاسيًا كالحجارة حتى جاءت تلك الصغيرة التي وضعت يدها على موضع الألم بداخلي وأشعرتني أني لست وحدي الذي أعاني هي أيضا تعاني من أجلي، ولأجلها سأفعل ما تريد اليوم.

عانيت كثيرًا في حلاقة شعر وجهي ورأسي، وحين انتهيت رأيت شخصًا آخر، غاب عني لخمس سنوات، لكنه عاد منكسرًا محطمًا ينتظر الموت كل يوم، ذهبت إلى غرفة النوم التي لم أدخلها منذ سنين لأرتدي ثوبًا من ثياب الماضي، وتفحصت عيني أرجاء الغرفة، وتوقت أنظاري على المنبه جانب السرير فمرت ذكرياتي من أمام عيني.

– تررررررررررررررررن.

أغلقت المنبه سريعًا قبل أن تستيقظ، وقمت من جانبها في هدوء شديد حتى أني سرت حافيًا خوفًا من أن تتحسس دعسات قدمي فتصحو من نومها، اقتربت من سرير الأطفال الذي يحمل طفلتي التي لم تكمل العام بعد، وجسست حرارتها فوجدتها أفضل من البارحة بكثير، شكرت الله وخرجت من غرفتي وبدأت في تحضير نفسي للذهاب إلى العمل، كويت ملابسي وفطرت ومزاجي سيىء بدونها، وارتديت ملابسي، وقبل أن أغادر الغرفة وجدتها تعانقني من ظهري وتقول لي:

– صباح الفل يا حبيبي.

– برضو صحيتي، مش كفايا إنك سهرتي بالبنت وهي تعبانة طول الليل،

استدرت لها فأكملت نومها على صدري، وبعد لحظات حاولت فتح عينيها الغارقة في النوم وأخذت تعدل ملابسي وتقول لي بصوت خامل:

– ما شاء الله، دا إنت ملغبط زراير القميص يا حضرت الظابط.

ضحكت ثم قبلت رأسها ورتبت على كتفها وأنا أقول لها:

– أعمل إيه مبعرفش أعمل حاجة من غيرك.

– ربنا يخليك ليا، متتأخرش النهارده عشان بتوحشنا أنا وندى.

وضعت المنبه مكانه، والتقطت صورة كانت تحمل ثلاثتنا، حدقت بها والدموع بعيني ثم تهاويت من فوق الأرض وأنا أحتضن الصورة وأبكي بقوة قائلًا:

– وحشتوني... وحشتوني أوي... سلمى أنا كنت غلطان لما قولتلك إنتم أغلى شيء في حياتي، إنتم كنتوا كل حياتي.

اشتد بكائي كطفل صغير، وأنا أضرب الأرض بقبضتي واحتضن الصورة بشدة.

قاطع بكائي صوت هاتفي يرن، وكان المتصل مليكة.

حاولت الهدوء ومسحت عيني وردت:

– أيوه يا حسن إنت فين؟

– جايلك أهوه.

– طيب يا حسن متتأخرش.

أغلقت الهاتف وبدلت ملابسي، ثم خرجت واستقليت سيارة أجرة وبعد حوالي ربع ساعة وصلت إلى المدرسة. صعدت إلى مكتب المدير وتحدثنا سويًّا، وعهدت له عدم تكرار النوم أثناء الحصص، وأخبرته أني سأهتم بنومها مبكرًا. طلب المدير إحضار مليكة وحين جاءت جلست أمامي، قولت لها:

– أنا قولت لحضرة المدير إن النوم في الحصص مش هيتكرر تاني، مش عايزك تصغريني بقى.

– أصغرك؟! هو حضرتك مين؟

تعجب المدير مما سمعه، ونظر لي بريبة كبيرة بينما ضحكت أنا، ثم اقتظت عيني، وأنا أنظر لها وقلت في جدية:

– مليكة مش عايز هزار.

فسألها المدير في حدة بالغة، وهو يشير بأصبعه إلي:

– مش ده خالك حسن؟

– حسن؟!!.. إزاي حسن.. لا لا أكيد مش هو!

وكلما زادت دهشتها اتسعت عينها وانفتح فمها مصطحبًا بابتسامة كبيرة. وقفت من مكانها لتمثل أمامي وتضع كلتا يداها على وجهي وقالت لي وعيناها تملؤها السعادة فهي ما زالت غير مصدقة:

– إنت حلقت دقنك وشعرك يا ابو علي؟!

أنزلت يدها عن وجهي وأنا مبتسم، بينما هي وجهت كلامها إلى المدير قائلة:

– أنا آسفة جدًّا، ومش هيتكرر نومي تاني في الحصص.

سلمت على المدير واستأذنته في الرحيل، وخرجنا سويًّا، وهي تقفز من الفرحة وتقول لي ونحن نسير في طرقات المدرسة.

– إنت حلقت شعرك ودقنك علشاني أنا صح.

ولم أكن أجيبها إلا بابتسامتي، أمسكت بيدي بقوة، وقلبها يرقص من السعادة، ثم همست لي بصوت منخفض:

– ما انت طلعت مز اهوه يا ابو علي؟

توقفت قدماي عن السير، فقد جاءت اللحظة التي صفعني فيها الزمان؛ لأفتح عيني مجددًا، وصعقت بما رأيت كما يصعق الرعد سماءه فقد رأيت سلمى أمامي متمثلة في مرأة برتقالية الشعر مثلها، تقف وتتحدث مع أحد المدرسين جعلت قلبي ينشق إلى نصفين، فلولا أني قد أنزلتها مرقدها بيدي لكنت أقسمت أنها ما زالت حية، وقفت ساكنًا لا أعرف ماذا أفعل، تتحرك دموعي بينما أنا ساكن لا

أستطيع الحراك، تشدني مليكة من يدي وتحدثني وأنا صامت، عيناي تصرخ بشوق قلبي، مرَّت بعض اللحظات، وأنا على هذا الحال إلى أن قررت الذهاب إليها، فإن لم تصدق ما تراه عينك اذهب وألمسه بيدك، تركت يدها وذهبت إليها، ونظرت لها وعيناي كالجمر الملتهب، والدموع تملأ وجهي، بدا عليها الخوف الشديد من نظراتي؛ حيث قاطع حديثهما وقوفي بينهما، أنظر لها بهذه الطريقة غير طبيعية ثم سألتها بصوت خفيض:

- سلمى؟!.... سلمى؟!

نظرت لي بتعجب شديد وعيناها تتشبس بنظراتي العاجزة المتألمة، وقبل أن توجه لي أي سؤال، تحرك ذراعاي ببطء وعانقتها كطفل صغير وجد ضالته بعد أعوام من التشرد، تعجب كل من كان ينظر إلينا فهي لم تبد أي ردة فعل لما قابلته مني، بينما أنا تعرضت للضرب ممن حولها، وأولهم ذلك المدرس الذي كان يقف معها، ولم يستطع أحد تخليصها من بين ذراعي إلى أن صدمني أحدهم بقطعة معدنية على رأسي، جعلتني أسقط أرضًا، لكن عيني ظلَّت تعانق صورتها إلى أن أغشي علي. فتحت عيني فوجدت نفسي بقسم الشرطة مستلقى على أريكة في مكتب فارغ، حاولت تدارك ما أنا عليه الآن، وشعرت بألم شديد في رأسي الملفوف برباط طبي، فيبدو أني قد أصبت بجرح في رأسي، نهضت وفتحت باب الغرفة لأجد أحد أفراد العساكر الواقفين على الباب يطلب مني الانتظار قليلًا، وبعد حوالي خمس دقائق دخل إلى المكتب رائد يدعى محمد طارق على ما أتذكر، وقفت لأرحب به حيث سلم علي وطلب مني الجلوس.

– اللي أنا سمعته عن حضرتك ده صح؟

عجزت في الرد عليه واستغرق الصمت بضعة لحظات إلى أن كرر سؤالًا فأخرجت زفيرًا مؤلمًا.

– تصرف زي ده ميطلعش من واحد زي حضرتك قيمة وقامة، ومثال يشرف لظباط الشرطة.

قاطعته قائلًا:

– آسف جدًّا، فقدت السيطرة على نفسي لما لقيت أنها تشبه المرحومة مراتي، ياريت محدش يعرف بالموضوع ده، وأنا مستعد لمواجهة أي عقوبة.

عقد أصابعه وبدا مقدرًا ما قلته له ثم قال لي:

– أنا مرضتش أتحرى أي محضر أول ما شوفت في البطاقة إنك حسن مصطفى الشواف، قولت أكيد في سوء تفاهم، وإني لازم أسمع منك.

– لا لا ممكن تقوم بشغلك وأنا معترف بغلطي.

– عمومًا هنحاول نحل الموضوع من غير محاضر.

رفع سماعه الهاتف وطلب حضور الأستاذة نور أحمد، ونظرت له نظرة مكسورة، وكأن قلبي بعد كل ذلك يتمنى أن تكون هي سلمى، ثم سألته قائلًا:

– هي اسمها نور.

أومأ برأسه ثم سألني قائلًا:

– تحب تشرب حاجة.

– لا متشكر جدًّا.

حضرت نور وطلب منها الجلوس، بينما أنا رأسي منخفض لم أنظر إليها حتى قال الضابط:

– آسفين جدًّا للي حصل، كان سوء تفاهم.. حسن مصطفى كان أكفأ ظابط في الداخلية، ومثال مشرف لينا كلنا، هسيبك معاه يفهمك سوء التفاهم.

قاطعت حديثه وتكلمت بقسوة:

– هتسبني مع مين مع الجدع المجنون ده.

فلم أرفع حتى عيني لأواجهها بما بداخلي أثرت الصمت.

– أنا عايزة أمشي من هنا، ولو عليا مش هعمل محضر بس يا ريت ماشوفش وشه تاني.

قامت من مقعدها وخرجت من المكتب فطلب الضابط حضور الأستاذ سمير سعد.

وعلمت حينها أنه خطيبها، وحين دخل أخذ يتوعد لي بصوت عالٍ، فطلب منه الضابط بصورة حادة أن يلتزم الهدوء قائلًا:

– لو سمحت يا أستاذ التزم الهدوء وصوتك ما يعلاش واتفضل اقعد.

كنت أنظر له بعينين جامدتين، بينما كانت عيناه تملؤها الشر، أكمل محمد حديثة بعدما جلس سمير أمامي.

– الأستاذة نور مش حابة إنها تعمل محضر.

ضرب قبضته على المكتب، وقال بغضب:

– إزاي يعني أنا لازم أعمل محضر.

ردَّ محمد بصورة حازمة وبصوت مرتفع نسبيًّا:

– بصفتك مين؟ صاحبة الشأن متنازلة، إتفضل حضرتك، والأستاذ حسن اعتذر للأستاذة نور وخلص الموضوع.

خرج من المكتب، وهو ينفجر غضبًا، وتوعد قائلًا:

– بس أنا مش هسكت.

نهضت استعدادًا للرحيل ومدت يدي لأصافح الضابط وأنا أقول له.

– آسف مرة تانية، ومتشكر جدًّا على وقوفك جمبي، وتفهمك موقفي.

– على إيه يا حسن باشا، نورت مكتبي.

وقبل أن أخرج من الباب سمعت صوتة يناديني، فالتفت إليه، فقال لي:

– لو عايز نصيحة من أخيك الصغير، إرجع شغلك تاني، إنت عامل زي السمكة، بَرَّه المايه متقدرش تعيش.

فضلت الصمت، وغادرت عائدًا إلى بيتي، وحين عدت ألقيت بجسدي على الأريكة، ونمت كمن حقن بمخدر دون أن أبدل ملابسي.

وفي الصباح طرق أحدهم باب بيتي بعنف، استيقظت ونظرت للساعة، فوجدتها الساعة الثانية ظهرًا، لم أعتد أن أنم هكذا منذ فترة، شبكت أصابعي وحاولت دفع الكسل والخمول خارج جسدي، وذهبت لأفتح الباب، فوجدت الطارق والد مليكة.

– أهلًا وسهلًا.... إتفضل.

دخل دون أن يتحدث أخذ يمشي ببطء في رواق البيت، يشاهد أرجاءه، لكن كان في باطنه يُعِدُّ ما سيقوله لي، وقفت أنا مستندًا على الجدار بجانب مدفأة البيت أشاهده وأنتظر ما سيقوله، وحين طال صمته قلت له:

– أعملك حاجة تشربها؟!

رد بصورة حادة لا ينبغي لضيف أن يتعامل بها:

– أنا مش جي أضَّايف أنا جي أقولك كلمتين وامشي.

انتظرت أن اسمع ما عنده، فجلس ووضع كلتا يديه على وجهه، ثم نزعها وبدأ الحديث:

– حط نفسك مكاني وقوللي هتعمل إيه، لو بنتك كانت على علاقة بشخص زيك، الناس كلها تعرف عنه إنه مجنون، هل هتكون مرتاح لشيء زي ده؟!

اخترت أن أبقى صامتًا على الرغم من أنه ينتظر مني إجابة.

– طيب إنت عارف أن مليكة بتشبهني بيك وبتشوفك زي أبوها، إنت ترضى تعتبر واحد زيك أبوها، طب إنت مسألتش نفسك بنتك ماتت ليه.

نظرت له بحدة جعلته يتردد قليلًا قبل أن يكمل.

– عشان إنت مينفعش تكون أب!!

تحركت ناحيته وضربت صدره بقدمي، فانقلب الكرسي إلى الخلف وجلست فوقه، وقبل أن ألكم وجهه تمالكت غضبي، وتركته

ثم نهضت، وأشرت إليه بإصبعي:

– لولا أن مليكة هتزعل عليك، كنت بعتك لبنتي تسألها ماتت ليه!

أمسكتة من ملابسه وسحبته إلى الخارج، وألقيت به وأغلقت الباب بعنف.

* * *

– شوفتي البيه بتاعك اللي طالعه بيه السما عمل في أبوكي إيه.

كانت تبكي بشدة، ولا تستطيع النظر إليه ولا تحتمل نظرات من حولها من أفراد أسرتها، فتح أباها ذراعيه فجرت ناحيته وعانقته بشدة وهي تبكي وتتوسل إليه أن يسامحها:

– سامحني يا بابا... أوعدك مش هتكلم معاه تاني.

بينما هو كان يشعر بالنصر في إحداث الوقيعة بينهم، مسح الدموع من فوق خدها، وقال لها:

– ممكن بقا أشوف ضحكة مليكة حبيبة بابا، ونقفل سيرة حسن منفتحهاش تاني.

أومأت برأسها إماءة خفيفة تحمل الألم في ثناياها، ثم صعدت إلى غرفتها، وألقت بنفسها على سريرها وأخذت تكمل بكاءها.

* * *

انتظار دام أكثر من ساعه بداخل سيارتي التي أخرجتها من الجراج، وقمت بإصلاحها لم يتبق سوى بضع دقائق على حد قول

مليكة سابقًا أن ذلك ميعاد خروجها من المدرسة، اشتقت إليها كثيرًا فقد مرَّ حوالي أسبوع لم أرها، ولم تحدثني حتى على الهاتف، أنهيت قهوتي التي أحتسيها بداخل السيارة، وما أن رأيت حافلة المدرسة تستعد للخروج عزمت على الدخول من الباب، وحاول الحراس منعي بينما هي كانت تنظر إلي من نافذة الحافلة نظرة أسى وحزن.

– لو سمحت يا أستاذ ممنوع دخولك المدرسة هنا.

– أنا بس هتكلم مع بنتي وأخرج على طول.

– حضرتك ملكش بنات هنا، واتفضل أحسن ما نتخذ معاك إجراء قانوني، وكفايا اللي حصل المرة اللي فاتت.

أصررت على الدخول فبدأوا بدفعي إلى الخارج، حتى سمعت صوت رقيق من امرأة تقف عن مطلع الحافلة، وبدا الصوت مألوفًا لي لكني لم أرها بوضوح.

– لو سمحتوا سيبوه.

وحين اقتربت واطلعت عليها، وجدتها نور شبيهة زوجتي، استدرت مغادرًا في خطوة سريعة، فنادت علي قائلة:

– إنت يا أخينا انت.

ثبتُّ مكاني أسمع صراع نبضات قلبي، نَزَلت عن الحافلة واقتربت منِّي، وقالت لي:

– إنت إيه اللي جايبك هنا؟

استدرت لها، وأنا أنظر بالأسفل، ورددت في استحياء كبير وتوتر:

– أشووووف... آ..آ..آ.. مليكة.

– طالما جي تشوف مليكة، مشيت ليه أول ما شوفتني.

رفعت عيني فرأيت وجهها المشرق يحرك الآلام داخلي أكثر فأكثر، ورأيت نفسي غريب الأطوار بعينيها، كما أنها كانت تحمل في صمتها أسئلة لا أستطيع إجابتها:

– أنا عارف إنك مش عايزة تشوفي وشي، ومش عايز أسببلك مشكلة.

أفسحت الطريق أمامي وأشارت بيدها ناحية الحافلة، وقالت لي:

– إتفضل قابل مليكة... بس هما دقيقتان مش أكتر.

انتظرت عند مطلع الحافلة، وصعدت هي لتخبرها أني بانتظارها، فلم تستجب لطلبي، نظرت إلى النافذة التي تنظر لي من خلفها، والدموع تملأ وجهها، هززت رأسي ابتسمت لها ابتسامة صغيرة، ثم وضعت كلتا يدي بمعطفي، وغادرت والدموع تصرخ بعيني تريد الحرية، لكني تظاهرت بالجمود، فإني أكره أن أكون عاطفيًّا بهذا الكم، وأيضًا ليس كل الدموع تستحق الحرية، هناك ما يستحق أن يبقى سجينًا بداخلنا يحرق على أحطاب كانت تبني قلوبنا يومًا.

* * *

– في إية بينك وبينه.

قالها بهدوء شديد وطريقة مريبة جعلتها تتعجب من سؤاله:

– بيني وبين مين؟

– الزفت اللي اسمه حسن.

– نعم!!!

– حسن مين؟!

عاد بظهره إلى الخلف، وهي يزفر في حنق ثم بدأ صوتة يرتفع نسبيًّا:

– آاااه إنت هتعملي نفسك عبيطة.

لم يعجبها الطريقة التي يتحدث بها في ظل وجودهم في ذلك المقهى الهادئ. هزت رأسها وهي تسأله قائلة:

– إنت تقصد الجدع بتاع المدرسة.

– آة أقصد الجدع بتاع المدرسة.

– هيكون بيني وبينه إيه أصلًا.

أجاب حامقًا وهو يضرب بيده على الطاولة التي تفصل بينهما:

– إسألي نفسك!

أغضبها ما تسمعه حيث أمسكت بحقيبتها واستعدت للمغادرة، وهي تقول:

– أنا همشي، أنا محدش يتكلم معايا بالأسلوب ده!

نهضت من مقعدها فنهض هو الآخر، وأمسك بيدها وشدها في عنف، وقال لها:

– الأول جه يحضنك، وانتي واقفة معايا، ومرضتيش تعمليله محضر، وغير سيرتك وكلام الناس عنك في المدرسة، وبعدين يجيلك المدرسة، وأول ما يشوفك يمشي، وانتي اللي تندهيه، أنا كنت واقف وشايفك من فوق، ولما دلوقتي بواجهك بتهربي أسمي ده إيه؟!

– سميه إنك مريض.... إنت عارفني كويس، وعارف أنا إيه، وعارف إن مفيش بيني وبينه أي حاجة، وأنا غلطانة إني جيت النهار ده أقعد معاك، افتكرت هتصلحني على الطريقة الزفت اللي اتعملت معايا بيها الفترة اللي فاتت، وغلطانة برضو لما قبلت إننا نتخطب.

صفعها على وجهها بقوة مما أصابها الذهول، بينما جميع من بالمقهى يحدق بهما ويستشين من فعلته. نظرت له نظرة تنم عن تحطيم صورته بداخلها، بينما هو كان الندم يقتله ويحاول تبرير فعلته قائلًا:

– نور... أنا مقصدش يا نور.

نزعت دبلة الخطوبة من يدها ووضعتها على الطاولة، ثم رحلت بقلبها المجروح وكبرياء المنكسر، بينما هو يقول لها بصوت مرتفع:

– رايحة فين يا نور أنا بحبك.... نور.

* * *

دخلت عليها صديقتها وهي تحمل الطعام لها، بينما تأمل أمها أن تأكل أي شيء وأن تخرج من تلك الحالة النفسية السيئة. كانت مليكة مستلقية تجلس على سريرها، محتضنة قدماها وتسند ناصية رأسها على ركبتيها، وضعت إسراء حاملة الطعام على السرير وجلست بجانبها، وقالت لها:

– على فكرة مامتك هتموت من القلق عليكي.

رفعت رأسها ونظرت لها وقالت لها بصوت هادئ:

– أنا كويسة... بس مليش نفس آكل.

– كل دة عشان حسن!!

بدأت في البكاء، بينما صديقتها تحاول مواساتها وهي بين ذراعيها، وتقول لها:

– طب اتكلمي ممكن أقدر أساعدك.

– حسن وحشني جدًّا..... وأنا وعدت بابا إني مش هتكلم معاه تاني... هو قاللي إن حسن ضربه لما راح يزوره.

حدقت صديقتها في عينيها وأمسكت بيدها وقالت لها:

– طب إنتِ مصدقاه!

خفضت رأسها وهي تقول بصوت يملؤه اليأس:

– بابا عمره ما كدب عليا.

– هو إنتِ مشفتيش يا بنتي كان عامل إزاي يوم ما جه يشوفك، ده الباص كله كان بيعيط على عياطك.

لم تكن ملامح وجهه تغيب عن أنظارها لحظة، وتشعر بالندم الشديد لرفضها الحديث معه، لكنها لم تكن تريد أن تخالف الوعد الذي قطعته لأبيها. أسندت رأسها على كتف صديقتها وقالت لها بصوت مؤلم:

– أنا تعبانة أوي.

وبينما إسراء تفكر في صديقتها طرأت على بالها فكرة:

– إيه رأيك تروحيله تفهمي منه، ولو بجد غلطان ابعدي عنه، ويبقى بباكي عنده حق أنا متأكدة أن أكيد بباكي ظلمه؟

استحسنت مليكة ما قالته على الرغم من مخالفته لما وعدت، لكن ليس من العدل أن تحكم على شخص لم تسمع منه، انصاعت

لرغبة صديقتها، وتناولت الطعام، وسعدت أمها لذلك، وفي الصباح أخبرت أمها أنها ستذهب إليه دون أن يعلم أبوها بشيء لتسمع منه ماذا حدث.

وافقت أمها بعد معاناة كبيرة من مليكة في إقناعها، ثم ذهبت مليكة إلى بيت حسن، وقفت أمام الباب تستجمع شجاعتها ثم طرقت الباب، وبعد لحظات فتح الباب، وحين رآها أغلق الباب في وجهها بقسوة، أصابها الدهشة والحزن من فعلته فهو هكذا يخبرها أنه لا يريد أن يراها، بينما هي لم تيأس أخذت تطرق الباب بشدة وتبكي:

– افتح يا حسن، إنت لازم تفهمني حصل إيه بينك وبين بابا... أنا مكنش بإيدي يا حسن.

بينما هو يقف خلف الباب يتألم، وهي يسمعها تبكي بالخارج، جثت على ركبتيها واستسلمت لبكائها. اختفى صوتها، فظن أنها رحلت.

وبعد مرور ساعة نظر من نافذة بجوار الباب فوجدها جالسة على الدرجة الثالثة من سلالم بيته القصيرة، فانفطر قلبه لانتظارها، أعدَّ كوبين من القهوة وخرج ليجلس بجانبها، وأعطاها أحدهما، فالتقطتها ثم وضعتها بجانبها واحتضنت ذراعه، وقالت له:

– كده يا قطتي، حد يسيب بنته كد؟!

ابتسم ابتسامة خفيفة وهو يمسك كوب القهوة بكلتا يديه، ويأخذ رشفة منه ثم يقول لها:

– بتحبيني صح!

فأجابته دون أن تتردد للحظة – اة بحبك اوي يا قطتي

– طيب لو بتحبيني بجد عايزك متجيش هنا تاني، واسمعي كلام بباكي هو بيحبك أوي.

ازدادت قوة عناقها لزراعة وأسندت رأسها على كتفه، وهزت رأسها بالنفي وهي مغمضة العينين فأكمل حديثه الهادئ:

– لو بتحبيني بجد وبتعبريني زي أبوكي إسمعي الكلام، أنا هكون مرتاح كده،

استغرقت بضع لحظات تفكر ثم ردت بنبرة متألمة:

– حاضر يا حسن بس عندي شرطين:

– الأول: تيجي كل أسبوع المدرسة تطمني عليك.

رأى أن بضع دقائق كل أسبوع لن تضر في شيء، فلم يعارضها ثم سألها عن الشرط الثاني، فقالت لي:

– تكملي حكايتك إنت وسلمى.

ابتسم فأبرع ما يحسن فيه هو تذكرها والحديث عنها، أخذ شهيقًا عميقًا، ثم بدأ يقص عليها ما بداخله من ذكريات لا تنسى دون أي مقدمات:

– لم تصبح للحياة نكهة إلا حينما رأيتها، وفي كل مرة كنا نتقابل فيها، كان قلبي يعزف نغمات الحب حتى اكتمل اللحن بداخلي وأصبحت متأكدًا أني وبكامل قواي القلبية والعقلية أحبها وأعشق تفاصيلها ومزاحها وضحكتها، حتى غضبها وأني بِتُّ متيمًا بها.

تكررت زياراتها إلى بيتنا بدعوة من أمي أثناء انشغالي في العمل بحجة أنها تشعر بالوحدة في غيابي، كنت أعشق اللحظة التي أعود فيها

إلى بيتي فأجدها جالسة بجوار أمي، ثم أصبحنا نتقابل كثيرًا بأسباب وبدون أسباب، وتحولت علاقة الحب التي كانت تختبئ خلف ستار الصداقة إلى علاقة حب واضحة، حينما فاض الكتمان بقلبي، وقررت البوح بحبي لها بعد ستة أشهر منذ أن عرفتها؛ حيث أحضرت خاتم الزواج ودعوتها في هذا اليوم إلى العشاء، وذهبنا إلى مطعم بيتزا كثيرًا ما نذهب إليه، استأذنتها في الذهاب إلى الحمام، ووقفت في مرآة الحمام أنظر إلى نفسي وأتدرب على قول ما أريده، فابتسمت وقلتها بكل بساطة:

– سلمى أنا بحبك.

لم أجد إجابة حتى أعرض عليها عرض الزواج، نظرت بجانبي فوجدت رجلًا مسنًّا بعض الشيء يجيلي على كرسي، وبيده ورق الحمام، وينظر لي على أني أحمق كبير. اقتربت منه ونظرت له في صمت فقال لي:

– في حاجة يا بني؟!

اقتربت منه وتحدثت إليه بدون مقدمات:

– دلوقتي في واحدة أنا بحبها، وعايز أقولها وأعرض عليها الجواز.

همس بصوت منخفض لكني سمعته:

– الجواز!! أهو المغفلين هيزيدوا واحد.

– بتقول حاجة يا حج.

– لا لا يا بني... طب وإيه مشكلتك؟

ضربت باطن يدي برأسي، وقلت له:

– منا مش عارف أقولها إزاي محتاج أتمرن؟

– وانت جي تتمرن هنا.

– أنا أصلًا ظابط شرطة، فمش واخد على الكلام ده خالص، أنا أعرف اتعامل مع مشبوهين قتالين قتله.

بدا مندهشًا مني وأخذ يفكر معي حتى خطرت ببالي فكرة فنظرت له نظرة حمقاء، وقلت له وأنا مبتسم:

– ممكن تساعدني؟!

– أوي أوي بس أساعدك إزاي؟!

أمسكته من كتفيه حتى ينهض عن كرسيه، وأوقفته أمامي وطلبت منه قائلًا:

– دلوقتي إنت هتبقى سلمى، وأنا هقولك إنى بحبك وافتح العلبة اللي فيها الخاتم وأقولك: تتجوزيني.

ضرب كفيه وعاد ليجلس على كرسيه وهو يقول:

– لا حول ولا قوة إلا بالله، بعدين في اليوم اللي مش راضي يعدي ده.

أمسكت بيده ونظرت له، وعيني تملؤها الرجاء ولم يجدِ معه ذلك، فاستعملت سلاح المال:

– بص لو سمعت كلامي أنا هديك ١٠٠ جنيه.

وحين سمع قولي، سعد كثيرًا ووافق على عرضي، ووقف أمامي يكاد ينفجر ضحكًا بينما أنا كنت جادًّا جدًّا:

– سلمى أنا بحبك.

صمت للحظات ثم حاول تقمص الدور وردَّ قائلًا:

– وأنا كمان بحبك أووي يا حبيبي.

بصقت بجانبي اشمئزازًا لأدائه السيء، وقولت له بغضب:

– إنت عشان ال ١٠٠ جنيه هتجود يا حج، إنت ترد تقولي وأنا كمان بحبك بس.

كررنا المحاولة مرة أخرى في تمثيل المشهد، فنظرت إليه وتخيلت سلمى أمامي وقولت له:

– سلمى أنا بحبك.

– وأنا كمان بحبك.

أخرجت علبة الخاتم من جيبي وجثيت على ركبتي ومددت يدي ناحيته قائلًا:

– تتجوزيني؟!

وفي تلك اللحظة دخل أحد زائري المطعم الحمام، وكان رجلًا في مطلع الشيب، أصلع الرأس، نظر لنا بغرابة ودهشة، ثم خرج وهو يقول:

– استغفر الله العظيم.

وقفت مسرعًا وأشرت له وأنا أقول:

– خد هنا، إنت مش فاهم حاجة، إحنا بنتمرن.

بينما ذلك العجوز غارقًا في الضحك، ويمد لي يده ويثني أصابعه ويفردها، قائلًا:

– هات الـ ١٠٠ جنيه واخرج فهمه براحتك.

وفيت بكلمتي وأعطيته المال، ثم خرجت من الحمام متجهًا إلى مطبخ المطعم، فأقبل عليه المسئول عن الطباخين في الداخل قائلًا:

– أقدر أسعدك بحاجة.

تحدثت معه فيما أريد، وخرجت عائدًا إلى سلمى التي ملت من كثرة الانتظار وحين رأتني قالت لي:

– إيه يا حسن، كل ده تأخير أنا زهقت من القعدة لوحدي.

– آسف على التأخير.... طلبتي حاجة ولا لسة.

– لا لسة مستنياك.

أشرت إلى الجارسون وطلبنا الطعام، ولاحظت هي أن صمتي زائد عن الحد هذا اليوم، فسألتني قائلة:

– إنت ساكت ليه النهار ده بزيادة؟

– لا مفيش، طمنيني إنتِ إيه أخبار شغلك؟

أخذت هي تقص لي ما حدث في عملها (هندسة الديكور) وابتكارها لفكرة جديدة في تزيين المنازل، حتى جاء الجارسون بالطعام، وبدأنا نتناوله، وعيني تترقب تلك اللحظة التي سترى فيها الخاتم في منتصف قطع البيتزا الدائري، وحين رأته اتسعت عيناها من السعادة، وابتسمت بشدة وهي تخرج الخاتم، أخذت شهيقًا عميقًا ملأ صدري، وحاولت طمأنة قلبي والتخفيف من سرعة ضرباته السريعة، ثم ابتسمت برؤية الابتسامة على وجهها، وقلت لها:

– سلمى أنا بحبك، تتجوزيني؟!

لم ترها عيني سعيدة بهذا الكم منذ أن عرفتها إلا هذه اللحظة التي شعرت فيها أني أصبحت أملك العالم كله بامتلاكي قلبها فقط، حينما أجابتني قائلة:

– وأنا كمان بحبك.

فأعدت سؤالي عليها:

– تتجوزيني.

أومأت برأسها (موافقة)، فأخذت الخاتم من يدها وألبستها إياه، ثم عانقتها عناقنا الأول، وغرقت بين نهديها، لا أدري شيئًا سوى أني سعيد جدًّا.

سعدت أمي كثيرًا لذلك، حتى أني خفت أن يصيبها شيء من فرط السعادة، ولم يعارض والدها (بدر) زواجنا، فقد كان كثير الإعجاب بي، وتزوجنا بعد ثلاثة أشهر من ذلك اليوم، ثم أراد الله أن يتم نعمته علينا وأخبرتني سلمى أنها ستأتي لنا بمولود يحمل نصفينا، فكانت سعادتي عارمة، وحملتها وأخذت أدور بها في سعادة كبيرة، ولم تطل سعادتي، فقد أخذ الموت أمي من بين راحتي بعد أن أوصتني أن أسمي الطفلة ندي، لم تعارض سلمى ذلك، وجاءت ندى لتزيد نور حياتنا المشتعلة بالحب إضاءة، وتخرجني من ظلام حزني على أمي إلى نور عينيها، وأصبحت لا أملك في الحياة سوى أسرتي الصغيرة.

انتهى من قص حكايته عليها، وانتهت معها القهوة، فقامت هي وعانقته بقوة حتى تشعره أنه ليس وحده، وأنها بجانبه، فقد كانت ترى فيه أباها على الرغم من قصر المدة التي عرفته فيها، وهمست لي قائلة:

– خليك دايمًا فاكر إنك في عنيا أحسن إنسان في الدنيا، وإنك حتى لو مش جمبي فإنت جوايا يا أبو علي.

شعر بدفء الأسرة في هذه اللحظات البسيطة، وضعت قبلة صغيرة على خده، ولوحت له مودعة:

– سلام يا قطتي.

* * *

الفصل الرابع

(أخبرهم أنك ستموت اليوم، وانظر من فيهم سيختار أن يعانقك في اللحظات الأخيرة)

الظلام بداخلنا يخيف أكثر من الظلام حولنا، فالبسمة التي تدلنا على الطريق هي نفس الوسيلة التي نخفى بها أننا تائهون، وتلك الجنة التي حلمنا بها لم تكن سوى جهنم المختبئة خلف جمال البدايات، ويكشفها قسوة النهايات، وقلوبنا الهشة باتت جافة من كثرة الآلام، وما زلنا صامدين نمني القلب بالعودة يومًا ما إلى ما كنا عليه، قلوبنا في الماضي لا تعرف للحزن طريقًا.

أغلقت دفتر مذكراتها، وذهبت إلى سريرها محاولة النوم، لكنه كان يقتحم عقلها بقوة لا تستطيع منعها؛ حيث ترى أمامها نظرة عينه المكسورة، وعناقه لها الذي كاد أن يفتك بعظام صدرها من قوته، فهو لم يتشبس بجسدها، بل تعلق بروحها كطفل ضالٍّ وجد أمه، وعيناها الحمراء كالجمر الملتهب من حرارة دموع عينيه، وصوته المكسور الغارق بالأحزان، كل ذلك يدل على صدق مشاعره وعدم ادعاء ما كان يعاني منه، وأخذت تتساءل من تلك المرأة التي كان ينطق باسمها؟! من تكون سلمى؟! لا بد أنها كانت

تعني له شيئًا كبيرًا، ربما كل شيء، وأصبح يملؤها فضول معرفة قصة ذلك الغريب الذي يؤرق نومها، فهو أصبح يشغل بالها أكثر من أي شيء فقد أفسد كل شيء في حياتها، حتى أنه سرق النوم من مقلتيها، ثم استرجعت ما حدث لها ذلك اليوم، حينما أتى سمير إلى البيت ليطلب منها الغفران، وقولها له إنه وإن كان الرجل الأخير على الأرض فلن تبقى معه، وكيف انتهى كل شيء في تلك العلاقة التي كانت تمهلها، لعل الحب يأتي يومًا لتثبت الأيام أن الحب إما أن يخطفك من المرة الأولى أو أنه لن يخطفك أبدًا مهما حاولت، لكنها اضطرت للخضوع وقبول التجربة خلف ضغوط المجتمع الشرقي التي تعيش فيه، والذي ينظر إلى المرأة التي تقترب من أواخر العشرينات مرأة عانس، ولا يعرفون أن الأميرة لن يتزوجها إلا أمير يستحقها. فتبًّا للمجتمع لو أراد أن يصنع من الأميرات عبيدًا للتقاليد فما فائدة الحياة لو لم يخترها قلبك.

* * *

صوت طرق مروع، جعلني أسرع نحو الباب، فوجدتها إسراء صديقة مليكة تقول لي وأنفاسها تتصارع:

– باص المدرسة اتخطف ومليكة فيه، وزمايلي في الفصل، وميس نور، ومستر هشام.

هرعت لما سمعته منها، فلحسن حظها تغيبها عن المدرسة اليوم؛ لتأتي لي بهذا الخبر، بدلت ملابسي بسرعة وأثناء ذهابي إلى المدرسة اتصلت بأمجد لأعلمه ما حدث، وطلبت منه الحضور، وحين وصلت وجدت أهالي الطلبة مجتمعين بالمدرسة يطالبون بعودة

أبنائهم، اجتمعت بهم في غرفة المدير، وكان من بينهم والد مليكة، وطلبت منهم التزام الهدوء وأخبرتهم أن كل شيء سيكون بخير.

جمعت أرقام المخطوفين جميعًا، ثم غادرت المكان أنا وأمجد، وتركنا الشرطة تكمل عملية التحقيق، أخبرني أمجد أن قطاع القمر الصناعي التقط إشارة من هاتف نور قبل أن يغلق، وتم تحديد مكان الإشارة، وكان هذا المكان هو مصنع مهجور على طريق مصر إسكندرية الصحراوي، أخبرت أمجد بأني سأذهب إلى هناك وأن يأتي هو بقوات الشرطة، عارضني في ذلك وطلب مني الانتظار، لكنه لم يستطع منعي أمام ما أريد، ركبت سيارتي وقُدْتُ مسرعًا إلى أن وصلت إلى هناك، تركت سيارتي في مكان ليس ببعيد عن الموقع، وساعدني قدوم الليل على التخفي الجيد، أعددت سلاح الكلاشنكوف، وقومت برصد أماكن أفراد الحراسة، ثم قمت باصطيادهم حتى توقف صوت إطلاق النار الذي انهال علي منذ إسقاط ثالث رجل منهم، تحركت جاريًا نحو المصنع وأنا أحمل مسدسي، رأيت سلمًا حديدًا في جانب المصنع، صعدت على درجاته مسرعًا، ووجدت بابًا حديدًا سمعت من ورائه صوت أحدهم قادم، فتنحيت جانبًا عن الباب، وانتظرت القادم، وحين فتح الباب ألقيت به من فوق ارتفاع السلم، ثم دخلت أنا وأغلقت الباب، تحركت في هدوء وأنا بداخل تلك الغرفة المظلمة التي تنتهي بممر دائري مضيء، وقفت على حافته وصوبت نظري إلى الأسفل، فوجدت المخطوفين في الفناء السفلي، اطمأن قلبي بعض الشيء لرؤيتهم، ثم واصلت زحفي نحوهم؛ حيث سِرْتُ ملتصقًا بالجدار في ذلك الممر حتى لا يراني أحد، إلى أن وصلت إلى سلم النزول، خلعت نعلي حتى لا يسمع أحد صوت قدمي وهي تطرق درجات السلم،

وجدت رجلين في ذلك الطابق، زحفت نحو أحدهم في خفة دون أن يراني، وكتمت أنفاسه، وحينما رآني الآخر وصوب ناحيتي رصاصاته أصابت صديقه، وأخرجت أنا سلاحي وأطلقت عليه وأنا أحتمي خلف تلك الجثة المستندة علي، سمعت صوت رئيس العصابة يصرخ فيهم أن يصعدوا جميعًا إلى أعلى، وهنا جاء دور قنبلة الدخان، التي عمت أنظارهم عني، وأخذوا يطلقون النيران في الهواء دون تحديد هدف؛ آملين أن يصيبني إحداها، بينما أنا أختبئ خلف السلم، وحين انتهوا ظنوا أني قد مت، فصوبت على ثلاثتهم، فسقطوا قتلى، ولم يتبق سوى شخص واحد وهو رئيس العصابة، الذي يمسك بنور ويصيح مناديًا:

– يا باشا لو مطلعتش الأمورة راسْها هتطير.

أخذ ينظر إلى الدخان في الطابق الذي يعلوه، فألقيت بسلاح أحد القتلى إلى الأسفل من اتجاه، حتى يلفت انتباهه أنني من ألقيت بسلاحي وأني قد استسلمت، وسأخرج له من هذا الاتجاه، بينما قفزت عليه من اتجاه آخر، فأفلت نور، وحاول التصويب ناحيتي، لكنه فشل، فقد سبقته وصوبت عليه بمسدسي، فاخترق الرصاص صدره فتجمع حولي الفتيات والأولاد يعانقونني، ومن بينهم مليكة التي كانت تبكي بشدة، بينما كانت نور تسألني:

– مين دول وعايزين منا إيه؟!

– مش وقتة لازم نمشي من هنا حالًا.

ولم تكن الروح قد غادرت جسد ذلك الندل، فقد فتح عينيه وأمسك مسدسه وصوب ناحية نور، وقبل أن يطلق عليها وجد ظهري ملاذًا لرصاصاته بعد أن عانقها وعيناها مقتظة من سوء ما ترى، فلن

أترك الزمان يعيد نفسه باختلاف الأشخاص، لن أصبح الطرف الذي يحمل ألم الموت دائمًا، فهذه اللحظة تشبه تلك اللحظة التي فقدت فيها زوجتي وطفلتي؛ حيث إني لن أدع الموت يأخذها من أمامي مرة أخرى أو يأخذ حتى شخصًا يشبهها.

سقطت على الأرض وتهاوت معي نور، وأحاط بنا الجميع، فوضعت رأسي على فخذها، ويدها على صدري، وتنظر ليدها الملطخة بدمائي وتصرخ، وبينما مليكة تمسك بيدي وتصيح باكية:

– متسبنيش يا حسن..... متسبنيش!!!

حينها، لم أر نور أمامي فقط بل رأيت زوجتي تقف خلفها، وتبتسم لي فحدثتها قائلًا:

– سلمى وحشتيني، المرة دي قدرت أعمل حاجة، ولو عاد الزمن نفسه مش هفكر ثانية إني أفديكي بروحي، سامحيني يا حبيبتي وقولي لندى تسامحني.

STOP

وإن امتلك الحب قلبك، لن تهتم روحك في أي عالم ستكون، ستصبح قادرًا على التضحيات، مهما بلغت حجمها حتى لو كان الثمن أنت.

***

لمحت عيناها الطبيب يخرج من غرفة العمليات، أسرعت نحوه مسرعة، قائلة:

– طمني يا دكتور بالله عليك.

صمت لبرهة تحطمت فيها أعصابها، ثم نزع نظارته عن وجهه، وقال لها:

– إحنا خرجنا رصاصة والرصاصة التانية محتاجة جراحة خطيرة في القلب، أتمنى يقدر يعيش الكام ساعة الجايين دول.

لم تسمع مليكة ما قاله الطبيب، فقد فقدت الوعي قبل خروجه ببضع دقائق. جلست نور على إحدى مقاعد الانتظار في الطُّرقة، تضع يدها على وجهها وتبكي، فجلست أختها الكبرى بجانبها تحاول تهدئتها، وتدعو الله بأن يشفيه

استفاقت مليكة، فوجد أباها وأمها وأخاها حولها، فأول شيء نطقت به:

– حسن يا بابا حسن فين؟!

نهضت من سريرها، ولم يستطع أحد أن يمنعها، وحين رأت نور تبكي هرولت ناحيتها، وقالت لها بلهفة كبيرة:

– طمنيني على حسن يا ميس نور.

نظرت لها بعينين دامعتين، وقالت لها بقلب مفطور:

– ادعيله يا حبيبتي هو محتاج دعوتك أوي.

مر حوالي ٦ ساعات وهو بغرفة العمليات يقوم بجراحة القلب، وجاء في ذلك الوقت الكثير من قيادات الشرطة، وأهالي الأطفال الذي تم إنقاذهم للأطمئنان عليه، كان الوقت يمر ببطء شديد حتى أطفأ الطبيب نيران انتظارهم وخوفهم حينما خرج، وقال:

– الحمد لله، العملية نجحت، ونتمنى من ربنا الـ ٢٤ ساعة الجايين يعَدُّوا على خير.

شكرت نور ربها كثيرًا وهي تبكي وطلبت من الطبيب قائلًا:

– أنا ممكن أشوفه؟

– آسف جدًّا، مينفعش تشوفيه دلوقتي.

– أرجوك يا دكتور لو حتى دقيقة مش هطوّل.

وافق الطبيب فدخلت وجلست بجانبه، تحدق بوجهه والدموع تهرب من عينيها، ثم أمسكت بيده وأخذت تحدثه قائلة:

– أنا مش سلمى، بس النهار ده بس اتمنيت أبقى هي؛ عشان الحب اللي شوفتك بتحبه ليها، ومهما كان مين سلمى، فيا بختها بحد زيك، يحبها الحب ده، لو هي ماتت وسبتك فملاك زيك لازم يعيش، كان المفروض أكون مكانك بس انت ضحيت بحياتك عشان واحدة متعرفش عنها حاجة، بس بالنسبة لك شيء كبير أوي.

ربّت على يدها دون أن يفتح عينيه، فسعدت كثيرًا لذلك، وشعرت بأنه يسمعها حتى أنها كانت تنتظر أن يحدثها بأي كلمة، حتى دخلت الممرضة، وطلبت منها الخروج، ربَّتَتْ على يده، ومسحت دموعها، وخرجت هادئة.

بعد مرور شهر.....

– يارب يفوء، أنا مش طالبه أكتر من إنه يرجع حياته تاني، ومبقاش أنا السبب في موته، يارب مفيش حاجة تعجز قصاد رحمتك وكرمك، يارب اشفيه.

قامت من سجودها، وقرأت التحيات، ثم قامت لتبدل ملابسها، واستعدت للذهاب إلى مشوارها الذي أصبح معتادًا، فكل يوم تذهب إلى المستشفى وترحل حينما تنتهي الزيارة، فقد أخذت أجازة من المدرسة، وتفرغت حتى تراه يوميًّا، رنَّ هاتفها قبل أن تودع أمها وترحل، فرأت أن المتصل ممرضة بالمشفى، وشعرت بالخوف الشديد في أن يكون قد أصابه مكروه، وحين أجابت سمعت صوتها يقول لها مندفعًا.

* * *

في وسط هذه الجنة الخضراء كانت واقفة تمسك بيد طفلتنا، وكلاهما يرتدي نفس الثوب الأبيض القصير، ويلوحان لي في سعادة كبيرة، فجريت ناحيتهم بسرعة، ودموع الشوق تملأ عيني تتسائل: هل حقًّا انتهى كل شيء، وأنا الآن على أعتاب بداية جديدة خالية من ألم الفراق؟!

فها هي ملائكتي الصغيرة هناك تنتظر أن ينتهي عَدْوِي في أحضانهم الدافئة، يبدوا أنهم اشتاقوا إلي كثيرًا كما اشتقت إليهم، قفزت في أحضان كليهما، وأغمضت عيني، ونسيت حينها كم تألمت بدونهم، فقالت لي سلمى:

– وحشتني يا ابو علي.

استلقينا على البساط الأخضر، بينما أنا في منتصفهم يصنعون من صدري وسائد ينامون عليها، أشارت لي ندى بأصبعها إلى السماء الزرقاء كلون عينيها، فرأيت بيتنا الذي كنا نعيش فيه، ثم أشارت سلمى إلى مليكة التي رسمت السماء صورتها، وهي تطرق باب

البيت، وتبكي ثم أحاطت أطرافها الباردة رقبتي وقبلت أسفل خدي، وقامت من راحتها فقبلتني ندى، وتبعتها وما أن نهضت لألحق بهم وجدتهما بعيدين يلوحان لي مودعين، وقبل أن أبدأ بالركض لألحق بهم، وجدت سلمى تشير لي إلى مكان بعيد، كان هو بيتنا وسط هذه الجنة الخضراء، وتقف أمامه نور ومليكة، وأشارت لي أن أمسح دموعي ثم قبلت يدها ولوحت لي مودعةً ورحلت وندى متشبسة بيدها، فعلمت حينها أنها تخبرني أني على أعتاب حياة جديدة، وأن الموت لن يأخذني الآن.

فتحت عيني فوجدت الدموع تزرف منها، وابتسامتي ما زالت على وجهي، كنت هادئًا أكثر من هدوء تلك الغرفة الموحش، التي لا يصدر منها سوى صوت رنين الأجهزة المتقطع.

نظرت إلى مؤشر ضربات القلب، فوجدت أن ذلك الخط لم يستقم بعد، وأني ما زلت على قيد الحياة، حتى الرصاص يرفض أن يقتلني، وتتمسك بي الحياة وكأنها تشعر بلذة حينما تلقيني إلى الموت، ثم تسحبني قبل أن يلتقطني. شعرت بسعادة، كلُّ شيء حولي بعودتي، حتى الوسادة أسفل رأسي، لكن لم أشعر أنا بالسعادة، بدأت أتدارك كل شيء فوجدت أن آخر ما أتذكره هو أنني سقطت غارقًا في دمائي بين صراخ ودموع من حولي، تحسست وجهي فوجدت لحيتي قد نمت، مما يدل على بقائي لفترة هنا، وأردت الاطمئنان على نور ومليكة، فبدأت نزع مجسات الأجهزة الطبية فحضرت الممرضة بسرعة فكان أول سؤال لها هو:

– نور ومليكة فين؟

وضعت يدها على صدري لتمنعني من النهوض، وهي تقول لي:

– ارتاح، كلهم بخير، وهيبقوا جمبك دلوقتي، حمدلله على سلامتك يا بطل،

حضر الأطباء للاطمئنان على حالتي، وبعد أقل من ساعة جاءت نور ومعها مليكة، أقبلت مليكة ناحيتي بشوق كبير ولهفة، وألقيت جسدها فوقي لتعانقني غير مبالية بجراحي، جززت على أسناني من الألم دون أن تشعر، فقد كانت تبكي فرحًا، وتقول:

– الحمد لله يا رب، كنت عارفة إنك هترجعلي تاني.

ضحكت ضحكة خفيفة ممزوجة بالألم، وقولت لها:

– حبيبتي أنا رجعتلك بس ثانيتين كمان كده وهوحشك.

اعتدلت بسرعة قائلة:

– آسف بس انت وحشتني أوي.

سمعت صوت نور تقول وهي واقفة عند باب الغرفة:

– وانتي كمان وحشتيه يا حبيبتي بس لازم ناخد بالنا منه.

وما أن نظرت لها حتى أبعدت أنظاري عنها، فاقتربت هي وجلست بجانبي وأمسكت بيدي وابتسمت لي كأنما تريد أن تكسر ذلك الحاجز الذي صنعته بيننا سابقًا.

– حمدلله على السلامة يا حضرة الظابط.

أغمضت عيني بقوة، فلم أستطع أن أراها ولو للحظة على أنها نور مدرسة مليكة وليس زوجتي سلمى، فتحت عيني وأنا أرد عليها دون النظر إليها:

– الله يسلمك يا أستاذة نور.

– يا راجل ده أنا بدأت أصدق إني سلمى، جي تقوللي دلوقتي إني نور.

ضحكت باستحياء، فشدت على يدي وهي تحدق في عيني بقوة، ثم قالت:

– شكرًا على إنقاذ حياتي، إنت مفيش منك كتير.

ردَّت في تلقائية بالغة:

– مش أغلى من حياتك.

قاطعتنا مليكة، وهي تراقب رد فعلي بدقة:

– على فكرة أنا حكيت لنور كل حاجة وانت في الغيبوبة.

اخترقت مسامعي هذه الكلمة كالسهم، ولم أبالي فتشها سري، بل ما أثار انتباهي كلمة غيبوبة، وسألتهم منذ متى وأنا هنا فأجابتني نور:

– إنت هنا بقالك شهر.

– شهر؟!

– آه، والحمد لله إنك رجعتلنا تاني.

– عايزك تحكيلي اللي حصل من ساعة ما اضَّربت بالنار.

أخبرتني أنهم مكثوا أماكنهم يبكون خائفين، إلى أن فكرت هي في الاتصال بالشرطة عن طريق الهاتف الذي كان بجيبي؛ حيث قاموا بتحديد موقع المكالمة والوصول إلينا، تعجبت لذلك كثيرًا وبدا علي الشرود والتفكير، فمن المفترض أن الشرطة تعرف مكانهم، فقد كان أمجد يعرف مكان الاختطاف، وأخبرته أن يحضر قوات الشرطة ويلحقني، أمر غريب حقًّا!!

قاطعت شرودي قائلة:

- في حاجة يا حسن.

- لا يا نور كملي.

شعرت بغرابتي بعض الشيء لكنها أكملت أنه حين حضرت الشرطة أخذتنى إلى المستشفى، وقمت بجراحة كبيرة في القلب، وأني قد دخلت في غيبوبة دامت لمدة شهر إلى أن استفقت الآن، وأني أصبحت مشهورًا جدًّا أكثر من ذي قبل، فالصحافة والإعلام تتحدث الآن عن ضابط الشرطة المتقاعد بعد وفاة زوجتة وطفلته، والمنقذ لحافلة الطلاب المخطوفين.

- تعرفي أمجد صح؟

قاطع سؤالي حديثها، وتغيرت معالم وجهها بعض الشيء حين سمعت، ثم جاوبتني قائلة:

- آه، بيقول إنه أعز أصحابك، ومفوتش يوم إلا لما جه يزورك فيه، بس لاحظت حاجة غريبة جدًّا في الفترة اللي فاتت دي، حاول يتقرب مني بصورة غريبة بحجة إنه يطمن عليك كل شوية، وفي مرة طلب مني إني أساعده في إني أختار هدية لعيد ميلاد بنته، ووافقت لما قاللي إنه مطلق مراته، ومبيفهمش في تنقية الهدايا، والصراحة محبتش أحرجه، بس اتصالاته بدأت تكتر بسبب ومن غير سبب، لحد ما يوم جيت أزورك هنا لقيت واحد لابس لبس الممرضين وحاطط كمامه على وشه، وكان في إيديه حقنة، وقبل ما يديها لك لاقاني داخلة عليه فارتبك وخرج بسرعة، ولما نديت عليه مبصليش حتى... شكل عنيه كان مألوف، وبعديها بنص ساعة، جه أمجد كنت قلقانة منه جدًّا

وخايفة عليك، مع إن في احتمال كبير مايكنش هو الشخص اللي انتحل شخصية الممرض.

بدأت الخيوط تتجمع داخل عقلي حتى غزلت نسيج أفكاري الذي أصبح بينه ترابط كبير، وعدت للماضي إلى يوم الحادثة الشنيعة.

* * *

– حسن أنا محتاجك دلوقتي حالًا تعالالي.

– خير يابني مالك في إيه؟!

– مش هينفع في التليفون، لازم تيجي دلوقتي حالًا.

حاولت استنتاج ما به من خبرة التعامل معه، فدائمًا مشاكله تكون مع زوجته. فقمت بسؤاله:

– إنت اتخنقت انت ورانيا، صح؟!

– آه، والموضوع هيوصل لطلاق.

– طيب خلاص هودي ندى عند حماتي، وهاجي أنا وسلمى هخليلهالك تقعد معاها تهديها شوية، شعرت بشئ غريب في رفضه ذلك، فقد كان كثيرًا ما يطلب مني أن تجلس سلمى مع رانيا ليتحدثا سويًّا في أمر افتراقهما.

– أنا عايز أقابلك في الكافيه نتكلم شوية عشان مخنوق.

أغلقت الهاتف وذهبت إلى سلمى في المطبخ، وكانت أمام الموقد، وقبل أن أقول لها أي شيء سمعتها تقول لي:

– أمجد عايزك، وهتروحله عشان متخانق مع مراته.

اقتربت منها وعانقتها من ظهرها ثم قبلت خدها بشفتين باردتين، وقلت لها:

– دا إنتِ بقيتي حفظاني لدرجة عارفة هقول إيه من قبل ما أقوله، دا أنا كده أخاف منك.

التفتت إلي وعانقتني وهي تقول مازحة:

– مش مرات ظابط شرطة يبقى لازم تخاف.

– طب حسبي، أحسن احبسك.

فقالت قاصدة عناقنا:

– هو في أحلى من كده حبسة.

أخذت نفسًا عميقا بين ذراعيها، فيه أشتم رائحتها التي أعشقها، سألتني هي وهي تزيد من قوة عناقها:

– هو انت كنت جي هنا عايز إيه؟

– مش فاكر.

ضحكت ثم أشارت إلي بأصبعها ناحية ندى التي تجلس أمام التلفاز.

– طب يرضيك العسل اللي هناك ده، اللي مستنيك عشان يسهر معاك النهار ده، ومرضيتش تنام عشان تقعد معاك، تسيبها وتروح لأمجد اللي مشاكله مع مراته مبتخلصش.

– طب وبالنسبة للعسل اللي في حضني.

تحسست بيدها وجهي ثم عادت إلي، قبلتني وهي تقول لي:

– العسل ده إنت وحشته أوي.

لجأت إلى الكذب الذي أكرهه كثيرًا، وأخبرت أمجد أن سلمى متعبة بعض الشيء، ويجب أن أظل بجانبها ثم جلسنا على أريكة واحدة بعد أن انتهت سلمى من إعداد الفوشار لنشاهد فيلمًا، وبعد حوالي نصف ساعة من أحضان الأسرة الدافئة دفع أحدهم الباب بقوة، أدت إلى كسره وانهالت خزائن الرصاصات علينا، ولم أستطع فعل سوى احتضان طفلتي التي اخترق الرصاص جسدى ليسكن جسدها.

* * *

– حسن، إنت سرحان كده ليه.

قالتها نور عندما حاولت إعادتي إليها، فقبضت جبيني بيدي ثم هززت رأسي محاولًا إزاحة هذه الذكريات المؤلمة عن بالي، الآن بعد أن أخذت منها ما يكفي للوصول إلى ما أريده وهو معرفة من المتسبب في قتل زوجتي وابنتي، شعرت نور أن شيئًا ما مهمًّا أصبح يشغل بالي بعدما سمعت ما قالته، ومر الوقت بينهم وأنا على حالتي هذه كثيرًا ما أشرد وأصمت، أتى كثير من قيادات الشرطة وبعض الرموز الصحفية والإعلامية الكبيرة للاطمئنان علَي، ومع انتهاء اليوم جاء أمجد بعد رحيل نور ومليكة، ودخل على وجهه ابتسامة عريضة، قائلًا:

– أبو علي حمدلله على السلامة يا غالي.

قبَّل كتفي وجلس بجانبي، وأنا صامت لم أتحدث بكلمة أحاول في هذه اللحظات التظاهر كوني طبيعيًّا.

– الحمدلله يا أمجد ربنا كريم.

– دي معجزة إن ربنا رجعك لينا تاني بعد كل ده.

– تفتكر دي حاجة حلوة ولا وحشة.

كان سؤالي جافًّا جعله يشعر ببعض التوتر خاصة، وأنه كان مصحوبًا بنبرة حادة ونظرات ثاقبة.

– أكيد شيء كويس.

– اللي إنت متعرفوش إني مرجعتش الدنيا وبس، لا دا أنا هرجع الشغل كمان.

راقبت تعابير الصدمة على وجهه برغم اختفائها خلف ابتسامته المصطنعة، وهو يرد مرتبكًا:

– اللي بتقوله ده بجد؟

زفرت في حنق ثم قبضت يدي وأنا أقول له:

– آه بجد، أصلي مش هسيب حق مراتي وبنتي، وعرفت هجيب حقهم إزاي.

شعر بالارتياب وازداد ارتباكًا وهو يقول لي:

– إنت عرفت مين اللي عملك كده.

صمت وأنا أحدق فيه صامتًا، ونظراتي تجعله يزداد خوفًا.

– لا، بس مش هسكت، هفتح ملف القضية تاني.

شعر بالراحه لما قلت ووضع يده فوق يدي وقال:

– وأنا معاك لحد ما نجيب حقهم، بس ارتاح دلوقتي لحد ما تخفّ وتقف على رجلك.

رحل أمجد ولم يطل في جلوسه معي، وحين أتى الليل دخلت

على إحدى الممرضات، وكانت تدعى شهد كما هو مكتوب في القطعة المعدنية المعلقة على صدرها، أمسكت بريموت التلفاز وأحضرت قناة يبث عليها إعلانات ثم استدارت وقالت لي:

– الأستاذة نور هتطلع في برنامج تلفزيوني دلوقتي مع المذيعة أمنية عمر،

تفاجأت مما قالت، وحاولت النهوض والجلوس على السرير، فساعدتني في ذلك، ثم سألتني إن كنت أريد شيئًا، فشكرتها ووضعت الريموت بجانبي، ثم خرجت، بينما كنت ضاجرًا بعض الشيء من فعل نور لذلك.

* * *

– مستعدة يا نور إحنا هنبقى على الهوا بعد دقايق.

– مستعدة ومتحمسة جدًّا.

كان جوًّا جديدًا عليها لم تره إلا في التلفاز؛ حيث كثرت الأضواء من حولها وكاميرات التصوير الموجودة بكل جانب، وأصبح بداخلها أحاديث كثيرة لا تستطيع ترتيبها، وشغف في أن تبدأ هذه الحلقة، وتمر هذه الدقائق المتبقية كالبرق حتى تفرغ ما يملأ جعبتها من كلمات غير قادرة على وصف ذلك الرجل، الذي تكمن فيه كل معاني الرجولة والشهامة، فكلما نظرت لها المذيعة رأت عينيها الصافيتين تلمعان كنجوم السماء، وشغفها يملأ عينيها، وقبل أن تبدأ الحلقة بثوان سألتها المذيعة قائلة:

– جاهزة يا نور.

أومأت برأسها وعلى وجهها ابتسامة هادئة، تزين ذلك الوجه النضر، قال رجل يقف خلف الكاميرات بصوت مرتفع:

- ٣.. ٢.. ١.. هوا.

بدأت المذيعة قائلة:

- أعزائي المشاهدين أهلًا بيكو في كل مكان وفي كل بيت، النهار ده معانا حلقة من نار عن شخصية مثال في التضحية والمثالية من رجال الشرطة الشرفاء، الشخص الذي أطلق عليه الفترة اللي فاتت رجلٌ لا يقتله الرصاص، زي ما أطلق عليه الفترة الأخيرة وتداولت صورته كتير من مواقع التواصل الاجتماعي، وهو الظابط السابق حسن مصطفى الشواف اللي أنقذ باص الطلاب اللي كان مخطوف، وأنقذ المُدَرسة نور اللي موجودة معانا النهار ده.

وجهت أنظارها ناحية نور، وقالت لها مبتسمة:

- نور، إتشرفنا بيكي جدًّا وأنا سعيدة إنك معايا النهار ده.

حاولت أن تطرد تلك الرهبة والخوف عنها واستعدت للحديث.

- شكرًا جدًّا أنا أسعد.

- عايزاكي تحكيلنا عن اللي حصل يوم الحادثة.

تمهلت لثوان ترتب حديثها ثم بدأت تسرد ما حدث إلى أن ظهر هو.

- أنا أول ما سمعت صوت ضرب النار برة وإن في حد قدر يوصلنا، أنا اطمنت شوية، وكان خوفي أكتر على الأطفال والبنات والولاد اللي معايا، وكنت بحاول اطمنهم بس الموضوع كان صعب،

خصوصًا أنهم شافوا عم إسماعيل السواق ومستر هشام – الله يرحمهم – وهما بِيِنْضِرْبوا بالنار قصادهم، وقف صوت ضرب النار، وكان في واحد ماسك مسدس وموجهه ناحيتي، ولما لقيته بيزعق في رجالته يطلعوا يشوفوا في إيه، ورجع صوت ضرب النار تاني، والمرة دي من جوه المصنع كنت حاسة إن هو اللي جه عشان ينقذنا.

قاطعتها المذيعة بسؤال أربكها بعض الشيء:

– إنتِ تعرفي حسن قبل كده؟

صمتت للحظات مترددة في الإجابة ثم قالت لها:

– آه، أعرفه إتقابلنا قبل كده في المدرسة.

طلبت منها أن تكمل سردها لما حدث، ولم تدقق على تلك النقطة في الحديث.

– وبعد كده لقيت دخان كتير ولقيت حسن بينط عليه ويضربه بالنار، وحسن افتكره مات، لكنه بعدها بلحظات مسك سلاحه تاني، وصوب ناحيتي، فحسن وقف قصادي وخد الرصاص بدالي.

– كان إيه إحساسك وقتها؟

– كان إحساس صعب جدًّا أن حد يضحي بحياته علشانك وتفتكر إنه مات، وانت المفروض اللي تكون مكانه، بس مكنش في وقت لأي شيء، كان لازم أسيطر على الطلاب اللي معايا، واللي معظمهم بنات، كان لازم أكون الشخص اللي يطمنهم ويحاول يتصرف، واستنينا سعتها حد ييجي يخرجنا من هنا، وزاد الخوف أكتر لما عرفنا إن حسن جه لوحده، وإن مفيش حد جه معاه، بعد كده أخدت تليفون حسن واتصلت بالبوليس، وحددوا مكانًا ووصلولنا.

قطعت البرنامج للخروج لفاصل ومشاهدة تقرير، وكان ذلك التقرير يحمل بعض الصور له ولأسرته المتوفاة وصور تخرجه من كلية الشرطة، ويتحدث عن الأوسمة والنياشين التي حصل عليها وتفوقه في عمله حتى تقاعد عن العمل بعد سنة من الحادثة المشينة التي أصابت عائلته الصغيرة.

وبعد انتهاء التقرير استأنفت المذيعة حديثها مع نور قائلة:

– اوصفي لنا إحساسك النهار ده لما فاق من الغيبوبة؟ واية رد فعل الناس اللي جت تزوره؟

– تقريبًا ده كان أكتر خبر فرحني في حياتي كلها، كنت بدعيله كتير ربنا يقومه بالسلامة، لحد ما الحمد لله، ربنا استجاب لدعواتي ولدعوات كل الناس اللي بتحبه.

مر الحديث بصورة طبيعية إلى أن باغتتها بسؤال، جعلها تصمت غير قادرة على الإجابة للحظات:

– هل العلاقة اللي بينك وبين حسن هي اللي خلته يضحي بحياته علشانك؟

تلعسم لسانها وأخذت تفكر فيما ستجيبها حتى هزت رأسها، وقالت لها:

– حسن إنسان مفيش زيه، ولو كان أي حد غيري كان عمل معاه كده.

شعرت المذيعة بأجابتها المترددة بعض الشيء، ورأت أن وراء ذلك سرًّا، ربما قصة حب ما دفعته لفعل ذلك، لكنها تغاضت عما تصول+ خلفه، وأكملت حديثها إلى أن انتهت الحلقة ووقف كلاهما،

وقالت لها المذيعة وهي تصافحها:

– أشكرك جدًّا على وجودك معانا النهار ده، وأتمنى لما حسن ربنا يتم شفاه تقنعيه ييجي يطلع معايا في حلقة من برنامجي.

– إن شاء الله.

صافحتها نور ورحلت، وهي في الطريق إلى بيتها تذكرت أنها أغلقت هاتفها قبل الحلقة، فتحته فوجدت رساله من حسن مكتوبًا فيها:

(مين اداكي الحق تطلعي على التلفزيون تتكلمي عني).

قبضت جبينها في ضيق، وهزت رأسها لائمة نفسها على ما فعلت، ثم نظرت في ساعتها فوجدت أن الوقت متأخر على الزيارة.

* * *

الفصل الخامس

(حاول أن تجد إجابة لما هو مبهم بداخلك قبل أن تجبرك الحياة على خوض تجربة تجعلك تعرف الإجابة بنفسك).

عجبًا عليك أيها الموت، أي انتقام تريده مني، وأي نعيم سيأتيني من هذه الحياة البائسة، فمن يتسبث بالحياة أخذه الموت، ومن تشبس بالموت تركه للحياة تقتله كما تشاء، فكلما فتحت عيني ووجدتني على قيد الحياة أشعر أن هناك شيئًا ما يجب علَي فعله، ويبدو أن الموت لا يريد أن يأخذني قبل أن أفعل ذلك الشيء وهو الانتقام.... الانتقام حتى أرقد في سلام، تاركًا ذلك الألم الذي مزق قلبي إربًا لأعوام.

سمعت صوت طرق الباب فقاطع حديثي لنفسي، اعتدلت من منامي وقلت بصوت مرتفع:

- اتفضل.

وجدتها نور دخلت علَي في رداء أبيض وعلى يدها زهور حمراء، وابتسامتها تعلو شفتيها، لم أستطع أن أمنع نظراتي الهائمة عنها، فكلما رأيتها أرى زوجتي ويزداد معها ألمي، قدمت لي الزهور

وجلست جانبي وأنا لا أحرك ساكنًا متجمدًا مكاني، أمسكت بيدي ثم قالت لي:

– أنا آسفه... لو أعرف أن الشيء ده هيضايقك مكنتش روحت الحلقة أصلًا،

استنشقت هواء الواقع بعد غرقي فيها، وتداركت موقفي وحزني الذي غفلت عنه حينما رأيتها، سحبت يدي من أسفل يدها ونظرت أمامي وقلت لها بطريقة حادة:

– إنتِ عارفة ليه أنا سبت شغلي؟

ردت وصوتها يحمل الندم في رنينه:

– ليه؟

– عشان لما معرفتش أجيب حقهم، كنت دايمًا لما ببص في عيون الناس بشوف نظرة شفقة، وخصوصًا لما الموضوع اتنشر في الإعلام، ولما خرجت من سجني اللي حبست فيه لقيت نفس المشهد بيتكرر تاني.

عادت تمسك بيدي مرة أخرى، والدموع على حواف عينيها:

– أنا آسفه... بجد آسفة.

صدرت كف يدي بالقرب من وجهها، وقلت لها وأنا مغمض العينين، وبكل هدوء:

– مش عايز أشوفك تاني.

زُهِلَت مما سمعته مني، ثم خرجت وهي تحاول مقاومة البكاء، بينما أنا لا أعرف من أين أتيت بكل هذه القسوة، ربما ظني أن بعد

انتقامي سيكون ملاذي الوحيد هو الموت، وأنا لا أريد أحدًا بجانبي، مرت ساعات تطرَّق فيها عقلي لكثير من الأفكار؛ منها ما سأفعله بعد خروجي من هنا، وانساق قلبي خلف صيحات اللوم: هل كنت قاسيًا مع نور وهي لا تستحق ذلك؟ حتى أتت مليكة إلى غرفتي في وجه عابث عاكفة راحتيها تنظر لي بغضب، تعجبت منها وقلت:

– ما لك يا مليكة؟!

أطلقت يديها إلى الأسفل وعقدت حاجبيها وهي تقول لي لائمة:

– زعلت نور ليه يا حسن، أنا متأكدة إنها متقصدش.

رددت بطريقة حادة:

– مش عايز أتكلم في الوضوع ده.

استغلت المساحة الفارغة من سريري بجلوسي المعتدل، وجلست أمامي متربعة وقالت لي بغضب:

– لا، هنتكلم في الموضوع ده... أصل دي مش أي حد دي واحدة بتحبك.

تعجبت من قولها وقلت لها ساخرًا:

– نعم بتحبني؟!

أمَّال خطيبها اللي كان بيضربني ده يطلع إيه؟!

– خطيبها ده سبها لما رفضت تعملك محضر، وأفتكر إنكوا على علاقة ببعض لما سمحتلك تشوفني عند الباص، نور مفوتتش يوم إنها تيجي تزورك وإنت في الغيبوبة، وكانت بتفضل ماسكة إيديك

وتعيط وبتدعي ربنا دايما إنه يقومك بالسلامة، وفي الآخر لما حبت تعمل شيء افتكرت إنه هيفرحك، تيجي إنت زي الدبشة وتزعلها كده.

اتسعت عيناي ورفعت حاجبي متعجبًا من طريقتها وتجرؤها في الحديث معي هكذا، وحين وعت هي لطريقتها تلك أخفضت رأسها وقالت لي برفق محاولة استعطافي:

– أنا آسفة لو اكَّلِّمْت بطريقة وحشة يا ابو علي، بس صعبانة عليا أوي عشان عارفة إنها بتحبك أوي.

شعرت باللوم فما كان يجب علي أن أكون قاسيًا لهذه الدرجة، ألحت علي أن أصالحها، اتصل بها فلم تجب، مما جعلني أعلم أن كرامتها أكبر من أن يداويها مجرد اعتذار على الهاتف، بعد مرور ساعة من الوقت دخل والد مليكة قائلًا:

– حمدلله على السلامة يا بطل، أول هام وقبل أي شيء سامحني، أنا آسف جدًّا، وبعد كده اعتبر مليكة بنتك زي ما هي بنتي بالظبط.

ابتسمت في وجهه متغاضيًا عما أحمله بقلبي له من غصة.

– الله يسلمك يارب.

استعد والدها لأخذها والرحيل، وضعت يدها على صدرها تترجاني قائلة:

– عشان خاطري متسبهاش زعلانة.

ودعتني ثم رحلت وتركتني بين أرجاء الغرفة البائسة تلك التي أكرهها كثيرًا ألوم نفسي على ما فعلت معها، وقفت على قدمَي مغادرًا

الغرفة، وأخذت أتمشى في طرقات المستشفيات محاولًا استجماع قواي، وحين عدت إلى غرفتي طلبت مقابله الطبيب وأخبرته أني أريد الخروج من المستشفى فطلب مني البقاء ليومين آخرين، لكني رفضت وأخبرته أنى بأفضل حال، وأستطيع تدبر أمري، سمح لي بالخروج على مسؤوليتي الخاصة، وما أن خرجت من المستشفى قمت بالاتصال بأمجد الذي أخبرني أنه خارج القاهرة في مأمورية خاصة وأنه سيعود في ليل الغد، أخبرته بشيء جعله يرتبك كثيرًا:

– بكرة هعدي على رانيا، واقعد مع بنتك ليلى شوية؟!

– إيه؟!

صمت لبضع ثوان ثم رد عليه بنبرة متغيرة:

– طب ما تستني أخدك ونروح سوا.

– إنت قلقان ولا إيه؟!

تلجلج في رده وبدا غير مقنع.

– لاااا...لاااا.. هقلق من إيه، رانيا طليقتي في الأصل قريبتك، وبنتي مولودة على إيدك، أنا بس عشان جوزها خايف يضايقك بكلمة أو حاجة.

ضحكت في سخرية مما زاد من ارتباكه، وقولت له ببرود زائد:

– لا متخفش عليا.

أغلقت الخط وتركته في حيرة من أمره، ثم اتصلت بمليكة؛ حيث سعدت كثيرًا حينما علمت بخروجي من المشفى وسألتها قائلًا:

– تعرفي عنوان نور.

قالت لي بصوت يملؤه السعادة والفرح:

- قوللي إنك هتروح تصالحها.

رددت عليها باستسلام ونبرة ضاحكة:

- أيوه يا زنانة هروح أصالحها.

أملتْ علي عنوانها، أغلقت معها ونظرت إلى ساعتي، وجدتها العاشرة مساءً، فامتضيت سيارة أجرة وتبضعت قليلًا، ثم اتجهت إلى العنوان المرجو، ووقفت تحت شرفتها أمسك لافتة ورقية مكتوب عليها:

- آسف.

ومعلق بها العديد من بالونات الهليوم المستعدة للانطلاق في الهواء؛ لتحمل لها اعتذاري وأسفي، وفي اللافتة هناك خيط معلق به وردة حمراء، قمت بالاتصال بها فلم تجب، أرسلت لها رسالة مكتوبًا فيها: (بصي من الشباك)، وما كادت أن تصل الرسالة إليها حتى وجدتها تنظر من شرفة في الطابق الثاني وضحكتها تمتزج مع دموعها، أطلقت صراح اللافتة لتحملها البالونات، وأحسنت هي الإمساك بها، ذكرني هذا بكم كنت بارعًا في إبهار زوجتي دائمًا وخلق المفاجئات.

وما أن أقبلت على الرحيل أشارت لي بـ (انتظر) وبينما أنا في انتظارها أقبل علَي بواب العمارة قائلًا:

- مستني حد يا باشا.

- آه.

بدأ يحدق بملامحي جيدًا وكأنه يعرفني جيدًا ثم سألني قائلًا:

– أنا شوفتك فين قبل كده؟

رددت بطريقة جافة ورسمية:

– مش مهم شوفتني فين.

أشار إلي بأصبعه وعيناه شبه مغلقة، كأنما يعصر عقله حتى يذكره أين رآني، ثم ابتسم وعلى وجهه الذهول:

– حضرتك حسن مصطفى ظابط الداخلية.

أومأت له برأسي إماءة خفيفة فقام بعناقي بدون سابق إنذار.

– العمارة نورت يا باشا، دا أنا لسه شايف حضرتك في الجرنال، الصفحة الأولى.

ثم نادى زوجته باسمه فحضرت مسرعة، وقال لها:

– حسن باشا بتاع الداخلية أهوه.

شعرت بشعور ليس بالسيىء، فلم أعد أرى في أعين الناس نظرة الشفقة، بل أصبحوا ينظروا لي كوني بطلًا، لم تمض سوى بضع دقائق، برفقة البواب وزوجته حتى أقبلت نور على مسرعة وتركونا سويًّا، وهي تمسك يدي بقوة، وتبتسم لي دون أن نقول أي شيء حتى بادرت أنا الحديث قائلًا:

– أنا آسف.

ابتسمت وهي ترفع أصبعها شارطة علي:

– مش زعلانة بس بشرط.

– شرط إيه؟!

احتلَّ الأسى والحزن ممزوجًا بابتسامتها:

– ماما مبتمشيش وكان نفسها تشوفك، وتيجي تزورك في المستشفى، وبما إنك هنا تحت البيت فأنا عايزاك تطلع تتعشى معانا زي ما طلبت مني.

ربتت على يدها وأنا أقول لها بعين يملؤها الرضى:

– حاضر.

صعدنا سويًّا وقابلت أمها التي فتحت كلتا ذراعيها لي، وبكت وهي تعانقني وقالت لي:

– ربنا يحميك يا بني ويحفظك زي ما حفظتلى على بنتي.

اشتقت إلى أمي كثيرًا في هذه اللحظة مما جعلني أقبل يدها ثم جلسنا سويًّا نتحدث، بينما كانت نور تعدّ شيئًا نشربه، قالت لى السيدة العجوز التي تدعي فريدة:

– بنتي نور موارهاش غير سيرتك، حسن.... حسن... حسن، لدرجة إن إخواتها بدأوا يغيروا منك.

خطر على بالي سؤالها بشيء لم أسأله لنور قبل ذلك:

– هو حضرتك عندك ولاد غير نور.

– آه يا حبيبي، مجوزة شابين وبنت، ولسة آخر العنقود نور ربنا يفرحني بيها،

مرت دقائق من الصمت تحمل ابتسامات عابرة حتى باغتتني هي بسؤال جعلني استذكر ما أحاول أن أبعده عن عيني لثوان:

– إنت متجوزتش من بعد مراتك؟

– لا طبعًا.

– ليه يا بني، إنت لسه شباب، والعمر قدامك.

حلت على وجهي ابتسامة مؤلمة كثيرًا ما تأتي أحيانا في ذكرها أخذتني إلى الماضي حينما سألتني سلمى:

– إنت ممكن تتجوز عليا يا حسن.

ضحكت حينها وأنا أضم رأسها موضع قلبي وقلت لها:

– ومين قالك إني معملتهاش.

ضربت بيدها صدري، وبدت جادة بعض الشيء، واعتدلت من نومها، بينما تسند راحة ظهرها على ذراعها ووضعت يدها على صدري، وأعادت سؤالها بالإضافة إلى جزء آخر لا يختلف في مضمون كوني يومًا سأقبل بغيرها أم لا:

– قوللي بجد: إنت ممكن تتجوز عليا يا حسن؟! أو لو حصلي حاجة ممكن تتجوز واحدة تربي بنتنا؟!

شددت يدها لتعود موضعها تدفئ رأسها ضربات قلبي المجيبة على سؤالها، وقلت لها وأنا أتحسس بيدها كتفها:

– إنتِ بالنسبة لي آخر نساء الدنيا، ولا هتجوز عليكي، ولا بعد الشر هجيب حد يربي بنتنا غيرك، كفايا الفرحة والدفا اللي بحسه وسطيكو.

اشتدت في عناقها لي، وهي تغمض عينيها مطمئنة؛ حيث كانت تلامس روحي بقوة.

عجبًا لن تملك العالم، لكن إذا ملكت قلب امرأة حقًّا جعلتك تشعر وكأنك ملكت العالم بأسره.

كانت لمعة عيني أمام تلك العجوز تخبرها بعدم رغبتي في الإجابة، خرجت نور وهي تحمل كوبًا من العصير، وقدمته لي، ثم عادت إلى المطبخ لتعد العشاء، جهزت المائدة فجلس ثلاثتنا، وأثناء تناولنا الطعام دق جرس الباب، وقامت نور لتفتح فوجدت أخيها الأكبر قد جاء ليتناول العشاء معهم، سلمت عليه فقامت أم نور بتعريفنا قائلة:

– ده حسن الظابط اللي أنقذ نور.

ثم أشارت ناحية ابنها قائلة:

– وده ابني الكبير صلاح شغال في شركة أمن كبيرة.

رحب بي ثم جلس على كرسي بجانبي، انتهينا من العشاء وكنت صامتًا طوال الوقت، أرد على نور إذا سألتني شيئًا، وبعد انتهاء العشاء جلسنا جميعًا في انتظار الشاي الذي تعده نور، قام صلاح بسؤالي وهو يحدق بي سارحًا:

– إنت مش ناوي ترجع شغلك؟

شردت للحظه أرى فيها نفسي ببذلة الشرطة مرة أخرى ثم ابتسمت له وقلت:

– قريب بإذن الله.

وما أن سمعت نور وهي بالمطبخ ردي على سؤاله حتى خرجت في سعادة بالغة، وتقول لي بعينين لامعتين:

– إنت بجد هترجع شغلك؟!

– بفكر!

جلست بجانبي وقلبها يرقص فرحًا من سماعها ذلك، وقالت لي في حماس:

– ده أحلى خبر سمعته في حياتي.

رددت بابتسامة خفيفة، ثم طلبت المغادرة لأني أشعر ببعض الإرهاق وودعتهم. فصحبتني نور إلى الباب، وقالت لي وعيناها تضحكان قبل أن أرحل:

– شكرًا.

– خدي بالك من نفسك ومن مامتك.

غادرت بينما هي كانت تنظر إلى من الشرفة، وقبل أن أختفي عن الأنظار نظرت لها فلوحت لي مودعة.

عدت إلى بيتي، وكانت الساعة الواحدة والنصف، وقبل أن أخلد إلي النوم تلقيت اتصالًا من أمجد في ذلك الوقت المتأخر، وحين أجبت وجدت صوته مضطربًا:

– حسن، أنا رجعت من السفر وبكرة هروح معاك.

ابتسمت ورديت عليه في هدوء شديد:

– إيه السرعة دي، مش كنت هترجع بكرة؟

– لا لا، ما أنا خلصت شغلي.

بدوت طبيعيًّا جدًّا وقلت له:

– كويس عشان كنت مستقل إني أروح لوحدي.

– خلاص أعدي عليك بكرة الساعة كام؟

– عدي عليا ٥.

أغلقت الخط دون أن أنتظر منه ردًّا... غفوت وأنا جالس على الكرسي، وأيقظني أذان الفجر، مما جعلني أدفع الكسل، وأقم للصلاة وحدثت ربي بما في قلبي من غصة، وطلبت منه العون فيما سأقوم به، تحركت من بيتي وأقسمت على ألا أعود دون أن أحصل على انتقامي.

* * *

الساعة ١٢:١٥ مقهى وبيمبلي، المعادي.

– أنت متأكد من اللي إنت بتقوله ده.

زفر في حنق، ووضع القهوة من يده، ثم نظر لها والحزن والأسى يملأ وجهه:

– للأسف متأكد، آخر واحد في الدنيا كنت أشك فيه.

– عارف يا حسن، زمان كنت مخبية عنك شيء كبير، دايما أغلب مشاكلنا أنا وهو قبل الطلاق كانت بسببك إنت وسلمى.

تعجب لما قالت، ونظر لها باستغراب شديد، أكملت هي حديثها:

– دايمًا كان بيقارني بسلمى، وكان دايمًا بيحسسني إنها أحسن مني، وكنت عارفة إنه بيحبها، بس عمري ما كنت أتصور إنه توصل بيه الوحشية لدرجة إن يقتلها.

قبض يده في غضب يحاول تمالكه، ثم نظر لها بعين يملؤها شرارة الانتقام، وقال لها في هدوء:

– وجه وقت الحساب.

أثار ريبتها ما سمعت، وسألته قائلة:

– ناوي على إيه.

حدق في عينيها بثبات ثم سألها قائلًا:

– بتثقي فيا؟

ترددت من سؤاله المفاجئ، ثم ردت محاولة تفسير غرض ذلك السؤال:

– أكيد طبعًا بس أعرف عايز إيه؟

– ليلى هاخدها منك، وأرجعهالك باليل ومتخفيش عليها، بس هي دي اللي هتجبلي أبوها وتخليني أوقعه.

صمتت تفكر والخوف بداخلها، وتذكرت تهديد أمجد لها أنه سيأخذ ليلى من حضانتها قريبًا، ثم أجابته متوترة:

– أهم شيء توعدني إن مفيش شيء هيحصل لليلى.

رد عليها مسرعًا:

– وعد، أهم حاجة تعملي كل اللي هطلبوا منك بالحرف.

* * *

بدأت رانيا بتنفيذ خطتي، واتصلتْ بأمجد، أخبرته أن ليلى تم اختطافها من حديقة المنزل، واستطاعت حبك الأمر جيدًا، فأسرع أمجد في الوصول إليها، وحين غادر من منزلها اتصلت بي لتخبرني بما حدث، وبعد ذلك وصل أمجد إلى بيتي، وأخذ يطرق الباب بقوة، وحين فتحت دخل مندفعًا، فوجد ابنته مستلقية على الأريكة مغلقة العينين، وقبل أن يلمسها ضربتُه على رأسه فسقط فاقدًا الوعي.

أجلست ابنته على رجليه وربطت كليهما بحبل واحد، ثم وضعت كرسيًّا خشبيًّا أمامهم وجلست أشاهدهم، فأنا على بعد ثوان من شيء تمنيته، ليست سنوات، لحظات تفصلني عن انتقامي، أخشى أن تغويني نفسي عما لا أستطيع مقاومته وأن يعمي غضبي ما تبقى من النور بقلبي.

وبعد حوالي ساعة ذهبت لأحضر كوبًا من الماء وعدت لمقعدي، شربته في هدوء شديد ثم ألقيت ما تبقى منه في وجهه، فتح عينيه ثم أغمضهما بشدة محاولًا تدارك ما حدث، ثم نظر حوله ليجد نفسه مقيدًا هو وابنته، ورآني أجلس أمامه حاملًا سلاحي وأنظر له كملك الموت عند قبض الأرواح، ارتجف وأخذ يقول لي متلعثمًا من كثرة الخوف:

– حسن، بنتي ملهاش دعوة باللي بيني وبينك، خرج بنتي برة الموضوع، أنا عندك أهوه إعمل فيا اللي إنت عايزه.

ضحكت بصورة هستيرية لم أعرفها منذ زمن طويل، وأنا أكرر حديثه بصورة متقطعة من كثرة الضحك.

– بنتي.... بنتي ملهاش دعوة.

ثم توقفت فجأة عن الضحك، ونظرت له بعينين مقتظتان وصرخت بوجهه:

– وأنا بنتي ومراتي كان ذنبهم إيه، بنتي اللي الرصاص قطع جسمي ودخل جسمها كان ذنبها إيه، ومراتي سلمى بنت خالتك يا صاحبي اللي ماتت ووقفنا ناخد عزاها سوا كان ذنبها إيه!!!

قاطعني صارخًا في وجهي:

– ذنبهم إنت يا حسن، ظهرت في حياتنا، بوظت كل شيء، من صغري وأنا عارف أن سلمى ليا، جيت إنت وخطفت قلبها وحبتك، وأخدت مني الشيء الوحيد اللي اخترته في حياتي، أخدت حب عمري، وجي تقوللي ذنبها إيه! ذنبها إنها اخترتك وسبتني أنا وقالتلي خلينا إخوات، مع إنها عارفة إن الحب اللي بحبهولها عمره ما كان حب إخوات، كنت بلعن كل يوم بيعدي عليا وهي معاك، وبلعن كل لحظة عارف إنك بتلمسها فيه.. عشان كده كان لازم تموت، وأشوفك إنت بتموت قصادي كل يوم، عشان أقدر أعيش من تاني يا حسن. إنت اللي موتهم يا حسن مش أنا... إنت اللي موتهم يوم ما أخدت سلمى مني... يوم ما كنت بتثبت للكل دايمًا إنك أحسن مني مخلتش قصادي شيء غير إني أهدك وملقتش حد يقف جمبي وبيكرهك أكتر من مصطفى الطحاوي... عارف!! أنا فرغت خزنة الرشاش كلها فيكوا وبرده فضل الغل جوايا منطفاش.

وقفت وألقيت الكرسي من تحتي إلى الزاوية، ثم شددت أجزاء مسدسي، ووجهت ناحية ابنته والدموع تملأ عيني وقلت له:

– لو على الموت فأنا ميت من زمان، بس إنت اللي عليك الدور تموت وتدوق من اللي أنا دوقته، ويتحرق قلبك على بنتك زي ما أنا اتحرق قلبي على بنتي ومراتي.

أخذ يصرخ ويتوسل إلى قائلًا:

– لاااا، حسن حسابك معايا مش مع بنتي، أنا اللي قتلت مراتك وبنتك مش هي.... أبوس إيدك بلاش بنتي.

وقبل أن تخرج طلقات الرصاص من فوهة سلاحي رأيت سلمى تقف خلفهم وتشعر بالأسى وتهز رأسها جانبيًّا، نافرة مما أفعل،

وعيناها تلومني بقوة، وتفتح عيني لأدرك إلى ماذا وصلت بي غريزة الانتقام، فهي ستقودني إلى قتل طفلة بريئة، لا ذنب لها في الحياة سوى أن ذلك الأحمق أباها، وتجعلني أنسى عهدي لأمها أنه لن يصيبها مكروه. أنزلت ذراعي ومعها رأسي إلى الأسفل، وحين رفعت رأسي لم أعد أرى حبيبتي أمامي، ابتسمت وقلت له بهدوء:

– متخفش أنا مش زيك هاقتل طفلة ملهاش ذنب، أنا هدك زي ما هدتني بطريقة تانية يا حضرت الظابط.

ضربته بكعب سلاحي على رأسه، ففقد وعيه وحين فتح عينه وجدني قد سلمته للشرطة، ومعه شريط مصور باعترافه بقتل زوجتي وابنتي، وأنهيت الإجراءات، وأعدت ليلى إلى أمها بعد أن أدلت أمها بأنها تركت الفتاة تذهب معي بكامل إرادتها، وفي اليوم التالي أمرت النيابة بضبط وإحضار المدعو مصطفى الطحاوي رجل الأعمال المعروف، ومرت بضعة أيام من التحقيقات، تم الإثبات فيها أن مصطفى الطحاوي وأمجد سرى هم المسئولان أيضًا عن حادثة خطف طلاب المدرسة بعد أن اعترف مصطفى الطحاوي أن تلك كانت رغبة أمجد وبعد انتهاء التحقيقات تم تحديد ميعاد جلسة المحاكمة.

* * *

– يعني ولا بتخليني أشوفك ولا تليفون بترد عليه فملقتش حل غير إني أجيلك هنا.

أشرت لها أن تجلس وقلت لها في هدوء شديد:

– أقعدي بس يا نور واهدي كده وقوليلي: تشربي إيه؟

وقفت بعد أن انصاعت لطلبي في الجلوس واعتراها الغضب الشديد:

– أنا مش جيه عشان أضايف، بعدين أنا أعرف كل اللي حصل معاك من التلفزيون زيي زي الغريب.

وضعت يدي على كتفيها وحدقت بعينيها وعلى وجهي ابتسامة خفيفة جعلتها تسكن وتهدأ:

– ممكن تقعدي بقا عشان عندي خبر حلو لسه ميعرفوش ولا الصحافة ولا التلفزيون.

جلست هادئة، وكأني ألقيت عليها تعويذة سحر، وبدت متشوقة لمعرفة ما سأخبرها إياه، أقبلت على الانصراف من أمامها، أمسكت بيدي وجذبتني لأجلس جانبها، وهي تقول:

– اقعد هنا وقوللي.

– طب هعمللنا قهوة، وبعدين أقولك.

أشارت برأسها رافضة، وصمتت منتظرة سماع ما سأقول:

– قدمت طلب لسيادة الوزير عشان أرجع الشغل تاني، وهتعرض على لجنة فحص طبي وإن شاء الله هرجع شغلي تاني.

قبضت على يدي بقوة من السعادة، وجوهرتيها تحمل فرحة كبيرة، وقالت في شوق وحماسة كبيرة:

– إنت بتتكلم بجد يا أبو علي هترجع شغلك تاني؟!

كانت سعيدة أكثر مني بعودتي لعملي، شعرت وكأنها تريد أن تقفز من الفرحة، وسمعتها تهمس لنفسها وتقول:

– الحمد لله يا رب أنا كنت بدعيلك والله، ربنا يكرمك ويوفقك.

أصبحت سعيدًا أكثر بسعادتها وتركتها وذهبت لأعد القهوة بينما هي تتمشى في فناء البيت الواسع؛ حيث لفت انتباهها ذلك البرواز الخشبي الذي يحمل صورة زوجتي المتوفية ووقفت أمامه حتى عدت إليها وأنا أحمل كوبي القهوة وقلت لها اتفضلي، فسألتني قائلة:

– هو أنا شبهها فعلًا؟!

– آة إنتِ مش واخدة بالك ولا إيه؟!

التفتت إلى ونظرت لي نظرة تعجب كبيرة، ولكنها تحمل كثيرًا من الشفقة.

– أنا آسفة لإني بخليك تفتكرها كل ما تشوفني.

ضحكت والألم يمتزج بضحكة خفيفة، خرجت من رحم أوجاعي، وهززت رأسي بخفة وقلت لها:

– أنا مبنسهاش عشان أفتكرها، هي ماتت بس ذكرياتها عندي هي الدنيا، اللي بتمنى تنتهي عشان أروح وأقابلها.

أحست بضيق شديد بداخلها لم تظهر لي منه شيئًا، لكني شعرت به فأنا لا أجمل الحقائق، أقولها كما هي؛ حيث إني لن أقبل ببديل لزوجتي حتى وإن كانت نسخة منها. التفتت إلى صورة ابنتي، ولم تقف عندها كثيرًا ثم توجهت ناحية الباب عازمة على الرحيل، ونظرت لي وعلى وجهها ابتسامة مصطنعة.

– مبروك ليك، وابقى طمني عليك دايمًا.

أكملت طريقها إلى الباب فناديتها قائلًا:

– سلمى... استني.

لم تلتفت إلي حتى، وقالت لي وهي تفتح الباب ببطء:

– أنا مش سلمى أنا نور.

أغلقت الباب ورحلت بينما أنا ساكن مكاني ينتابني شعور سيئ لا أستطيع تحديد هويته، فقد أكملت الطريق في إفساد سعادتها حينما ناديتها بغير اسمها. كم أنا أحمق؟! فمهما كان صبرها لن تتحمل أن أنكر ذاتها وأن أراها شخصًا آخر، لكني حقًّا لن أقبل يومًا بأن يحل أحد مكان زوجتي حتى لو كانت شبيهتها، لكني لا أنكر شعورًا بالانجذاب الدائم لها، وكأن الزمان يعيد نفسه وأن زوجتي قد بعثت لي على هيئتها.

سمعت طرق الباب، أسرعت إليه حيث ظننت أنها قد عادت لكني وجدت الطارق مليكة، وتنظر لي مجددًا بوجهها العابث، رفعت رأسي إلى الأعلى واستدرت متجهًا إلى الداخل، دخلت وأغلقت الباب، وقالت لي بصوت عالٍ:

– عملت أي يا حسن زعلها، أنا شوفتها خارجة من عندك مكسورة ومضايقة،

رددت في رعونة وامتعاض:

– معملتش حاجة.

جاءت لتقف أمامي، وقالت لي برفق:

– على بنتك برضو، إحكيلي زعلتها ليه؟

ضعفت كالعادة أمام طفولتها التي تحيط بقلبى، وتجعله يستسلم دائمًا، وقلت لها، وأنا رافع ذراعي إلى مستوى رقبتي، ثم تركته.

– غلطت في إيه أنا لما قولتلها إني مبنساش مراتي، وإن مستني حياتي تنتهي عشان أروحلها.

عضت على شفتيها وأخذت تفكر لثوان، ثم قالت لي:

– بالنسبة ليك مغلطتش بس بالنسبة ليها صعب لأنها بتحبك.

نهرتها بقوة وكأنها هي الملامة:

– وده غلط، مينفعش تحبني عشان أنا متحبش، لازم تخرج من حياتي.

انصرفت من أمامي، وعادت وهي تحمل إحدى كراسي منضدة الطعام؛ حيث وقفت فوقها ثم نهرتني بقوة قائلًا:

– ومين قالك إنك متتحبش، هي حبت العتمة اللي جواك، حبتك بوجعك وتعبك وكل حاجة فيك، ده رسالة من ربنا يا حسن افهم، ربنا بعتهالك عشان تسندك وتكمل حياتك معاها؟!

قالت ذلك وهي تصدم أصابعها برأسي برفق، كأنما تريد أن تلفت انتباهي لشيء، نظرت لها بغضب فوضعت جبهتها بجبهتي، وبادلتني نفس النظرة ثم ضحكت فضحكت أنا الآخر، وقبضت على كتفيها وحملتها إلى أسفل،

ضربت قبضتها ذراعي برفق، وقالت لي:

– يا ريت قلبك قوي زي درعاتك يعافر في الدنيا ويعيش.

ردت والحزن يغلب على صوتي:

– قلبي مات يا مليكة من زمان.

– قلبك لو مات مكنتش زماني دلوقتي بنتك، قلبك لسه بيعرف يحب، ربنا بيديك فرصة تانية والفرصة التانية مبتجيش لأي حد، فكر يا أبو علي

ابتسمت لها وأنا أضع يدي على رأسها لأبين لها فرق القامة بيننا.

– إنتِ كبيرة على الكلام ده يا مفعوصة إنتِ.

أشارت على قلبي بأصبعها وقالت:

– بس اللي هنا أنا حاسة بيه.

غادرت لأنها كانت على عجلة من أمرها، وأخبرتني أنها لم تكن قاصدة المجيء، بل كانت ذاهبة إلى صديقتها المريضة إسراء، وعندما رأت نور أمامها سلمت عليها ولاحظت ما بها، فدخلت لتسألني عما دار بيننا، ودعتها وودعت بعدها منزلي.

ذهبًا+ لأتابع أمور القضية التي سيحكم فيها القاضي بالغد، والتي سيتغير بعدها مجرى حياتي.

* * *

اقتظت القاعة بحضور غفير، وصحفيين كثيرين يتزاحمون على الأبواب، نبضات قلوب متصاعدة وأخرى هادئة، أعين جامدة وأخرى خائفة، صيحات صراخ متنوعة تطلب بالعدالة، وأجواء مضطربة تسود المشهد، الجميع في انتظار خروج القاضي لينطق حكمه، وفي الصف الأول يجلس حسن في هدوء زائد، تحمل ملامحه تعابير القوة والجمود، لا يهتم بما يسمعه من عبارات مشينة ملقاة من أمجد خلف

القضبان، وتجلس بجانبه نور تتشبس بيده، محاولة طمأنته بكلامها، لكنه لا ينظر لها كانت عيناه مستقرة نحو هدف ثابت، ولا ينطق بشيء، خرج المُحضر وقال بصوت مرتفع: (محكمة)، وخرج من بعده القاضي والمستشارون وجلسوا أماكنهم ثم بدأ القاضي بنطق الحكم.

– حكمت المحكمة على المدعو مصطفى أنور الطحاوي بالأشغال الشاقة المؤبدة وغرامة مائتان ألف جنيه، وعلى المدعو أمجد سري صابر بالفصل من جهاز الشرطة، وإحالة أوراقه إلى فضيله المفتي.

انطلقت الصيحات من بين مؤيدين ومعارضين، وابتسامة نصر تعلو شفتي حسن، ونظرة تملؤها الدموع مصوبة تجاة نور التي ربتت على يده الممسكة بيدها الأخرى وهي تقول له:

– الحمد لله ربنا حكم عدل.

عاد يرى زوجته مرة أخرى تقف أمامه، ومعها ابنته الصغيرة، يضحكون له في سعادة عارمة، فتدلت دموعه المحتبسة على حواف عينيه، وهمس قائلًا:

وأخيرًا.

لاحظت نور شروده وثباته ودموعه على وجهه، فوكزته لينظر إليها ثم عاد لينظر إلى زوجته فلم يجدها، قام من مقعده ومسح دموع وجهه، وارتدى نظارته السوداء، واقترب من القفص الذي ازدحم بأقارب أمجد ومصطفى الطحاوي، فقال له أمجد بصوت يحترق غضبًا:

– ارتحت يا حسن دلوقتي، بس وربنا ما هسيبك.

ضحك حسن وهو يقول له مستفزًّا:

– حضرة الظابط حسن، متنساش نفسك! وبعدين الراحة وأنا واقف قصاد عنيك وحبل المشنقة حولين رقبتك.

أدار ظهره ليرحل بينما يسمع صيحات صراخ أمجد تدوي بداخل قلبه فرحًا. خرج من باب المحكمة معه نور المتشبسة بيده كالطفل الصغير، التف حولهم الكثير من الصحفيين والمصورين، فرفض حسن قول أي شيء، وأسرعا في خطواتهما إلى السيارة، فأقلع بالسيارة دون تحديد وجهته؛ حيث سألته نور قائلة:

– هنروح على فين.

– مش عارف بس هوصلك البيت لو حابه.

هزت رأسها بالنفي، وقالت له وهي تعكف ذراعيها:

– لا أنا مخدتش أجازة من المدرسة عشان أروح البيت دلوقتي.

ذهبا إلى أحد المقاهي التي اعتادا الذهاب إليه في الفترة الأخيرة من مقابلتهم، جلسا على طاولتهم المعتادة، أخذ يتأمل كلا منهم الآخر، وكان موقنًا أنها تنتظر أن تسمع منه الكثير، خاصة بعد أن وقفت بجانبه، وتحملت تقلباته النفسية وتغيراته في الفترة السابقة التي كان يعاني فيها من اضطراب نفسي، ابتسمت له، ثم قالت له:

– وبعدين ناوي على إيه في حياتك؟ أديك جبت حق مراتك وبنتك، ورجعت شغلك.

سألها سؤالًا أربكها كثيرًا دون أن يمهد أو يهيئ لها أي شيء، فاجأها فقط قائلًا:

- بتحبيني؟!

اتسعت مقلتاها واستقرت نظراتها عليه، وكان الصمت سيدها للحظات حتى أغمضت عينيها وهزت رأسها ضاجرة من الحقيقة، وقالت له:

- للأسف آه.

- اتمنيت تكدبي عليا، وتقوليلي: لأ.

ضحكت وقالت له في سخرية:

- كنت هترتاح لو قولتلك: لأ.

أخفض رأسه وشعر بالضيق كونه لا يستطيع إجابتها، فسمعاه تكمل كلامها قائلة:

- متخفش، اعتبرني كدبت ومحبكتش، وإنت روح كمل حياتك، وابعد زي ما إنت عايز، ومتشلش همي، أنا هكمل بيك أو من غيرك، أنا عارفة إنك بتحب المرحومة مراتك، ومخلص ليها جدًّا، وأنا كنت مستنية إنك تقدر تقف على رجلك، بعد كده كنت همشي من حياتك.

صمت ولم يتفوه بشيء مما أكد لها أنه لا يريدها بجانبه، وأنه يريد أن يظل حبيس دائرة الأحزان التي يعيش فيها، فهو لم يعارضها في أي شيء، لكن الحقيقة أن خلف صمته شخصًا مذبذبًا، يحاول ترتيب عباراته، وحين بدأ يتحدث ناطقًا باسمها وضعت يدها فوق يده، وهي تقوم من مقعدها، وتقول له وعلى وجهها ابتسامة مؤلمة:

- خد بالك من نفسك.

أمسك بيدها ورأسه مُنْحَنٍ، فأفلتت يدها ومعها دموع عينيها ثم غادرت، وما أن لحق بها وجدها قد استقلت سيارة ورحلت.

عاد إلى بيته سيرًا تتضارب خطواته بأحزانه، يراوضه شعور الوحشة والضيق؛ كمن فقد شيئًا تظاهر دائمًا بأنه لا يراه، لكنه اكتشف أن الخطأ ليس بعد رؤيته لكن بالشعور به، فبين الخطأ والصواب شخص يقف في المنتصف لا يستطيع التفريق بينهما، كل ما يملكه هو التألم فقط بين الشطرين.

* * *

الفصل السادس

(ماذا لو هوت عيناك شخصًا ووقع قلبك في حب شخص آخر)

وكيف لي أن أشعر بفقدان أحد غيرك، لا أستطيع تجاهل شعوري بالاشتياق إليها، حتى وإن صمدت ثلاثة أشهر بعد ذلك اليوم المشئوم الذي تركتها ترحل فيه ودموعها تحرق وجهها، لا أعرف إن كان ما فعلته صوابًا أم أنه خطأ كبير، لكني الآن عاجز عن فعل أي شيء سوى أني أنظر إلى صورتك، وأحدثكي بقلبي وأقول إليكي أني حقًا أتألم، وأسألكي أَلَمْ يمتْ قلبي معكي؟! ألم يدفن بجانبك؟! لما أشعر بها تصارع مخيلتي وتقتحم ذاكرتي إلى جانب ذكراكي لما أتألم بفقدان أحد غيرك؟!

قولى لي ماذا أفعل عزيزتي؟ أخبريني.

قلت لها ذلك وأنا جاثٍ على ركبتي أمام صورتها أبكي، حتى سمعت همسًا في قلبي يقول لي: إذهب إليها... هيا.

صدقت ما شعرت به ومسحت عيني واستجمعت قواي ثم وقفت، وأنا مبتسم وغادرت المنزل دون حتى أن أغير ملابسي... ركبت سيارتي وتوقفت عند متجر لبيع الزهور، اشتريت باقة من الزهور

الحمراء والبيضاء ثم أكملت طريقي في شغف كبير، وصلت إلى بوابة العمارة فألقيت السلام سريعًا على بواب العمارة الذي قابلني عند مدخلها، صعدت إليها وطرقت الباب في لهفة وشوق، فتحت لي امرأة عسلية العينين، بديعة الوجه، بيضاء جدًّا، شعرها بني، أنفها متناسق مع فمها الصغير، خضعت أمام نظراتها المليئة بالدموع، حين رأتني لكن لم تتدل دموعها إلا حين سألتها:

– نور فين؟

ردت بصوت مكسور يشبه صوتها كثيرًا:

– إتفضل.

شعرت بقلق شديد من نظرتها تلك، والدموع التي تسقط من عينيها دون سيطرة، خوفًا من أن يكون قد أصابها مكروه، دخلت في خطوة بطيئة، وأنا أحمل على يدي الأزهار، انتظر تلك اللحظة التي أراها فيها، فقد اشتقت لها كثيرًا بينما كانت هذه الفتاة تسير بجانبي وتنظر لي وكأنها تعرفني جيدًا، وقبل أن أجلس وقفت أمامي ووضعت كلتا يديها على وجهي، وقالت لي وأنينها يتحول إلى بكاء:

– أنا نور.

لم تبدُ دموعها ونظراتها كاذبة، لكني لا أبدو أحمقًا لهذه الدرجة، ضحكت إليها وأزلت يدها عن وجهي، وكررت سؤالي:

– نور فين؟

في هذه المرة اشتد بكاؤها وهي تتشبس بعيني بقوة، ثم عانقتني بكل ما لديها من قوة.

مستحيل؟! إن كذبت الدموع لا يكذب العناق أبدا فقد غرقت بين ذراعيها ذات مرة، وأنا أراها أمامي زوجتي، أهذا حلم أم كابوس؟! يجب أن استيقظ منه حالًا لأفهم كل شيء، دفعتها بقوة بعيدًا عني وأدى ذلك إلى سقوطها على الأرض وسقطت مع الأزهار من يدي، وقلت لها بغضب شديد، وبصوت مرتفع نسبيًّا: - نور فين ردي عليا؟!

وبدأت أرفع صوتي أكثر وأكثر مناديًا عليها:

- نووووور.... نووووور.

وقفت هي وحاولت أن تهدأ من روعي، لكني كنت أدفعها كلما اقتربت مني، حتى خرجت أمها على الكرسي المتحرك، فأقبلت عليها مسرعًا في لهفة وسألتها قائلًا:

- نور فين يا ماما؟

صمتت وهي تنظر لي في شفقة لا تعرف بماذا تجيبني، لكن صمتها كان يقلقني أكثر... انحنيت بظهري لها وأمسكت يدها وكررت سؤالي، وضعت يدها على كتفى وقالت لي برفق:

– استهدي بالله يا بني، ونور هتفهمك كل حاجة؟

حاولت تمالك نفسي وغضبي، وسألتها في هدوء:

- مين نور؟!

فأشارت إلى تلك الفتاة الباكية خلفي، مما أثار جنوني، اعتدلت وأنا أصرخ بصوت مرتفع:

- يووووووووه، إنتوا هتجننونى! نور فين دي مش نور.

ضربت كفِّي في عنف، فوضعت يدها على كتفي، وما أن استدرت حتى وجدت نور ترتدي ملابس تلك الفتاة التي فتحت لي الباب، أمسكت بكتفيها وقلت لها مرتجفًا:

– الحقيني يا نور، الناس دي عايزة تجنني، في واحدة بتمتحن شخصيتك، وبتقول إنها نور، ومامتك كمان بتقول كده، أنا مش فاهم حاجة.

التفَّ ذراعاها حول وسطي، ورأسها على صدري، وقالت لي وهي تحاول استجماع كلماتها:

– أنت مريض نفسي، ولازم تتعالج.

أبعدتها عن قلبي الذي يتهشم بقولها، ووجدت حين نظرت بوجهها الفتاة التي فتحت لي الباب، صرخت بصوت مرتفع وبدأت في تحطيم أساس المنزل في غضب عارم، ولم أكن أشعر بما أفعل، فقد بدوت كمن فقد عقله بل إني لم أبدو فقط، أنا حقًّا قد فقدت عقلي بما يحدث معي، فكل ذلك ليس طبيعيًّا، وبينما أنا غاضب سمعتها تقول:

– أنا عرفت إنك مريض نفسي من مليكة اللي قالت لي إني مشبهش زوجتك في أي شيء، واستشارنا دكتورة نفسية وعرفنا إنك مريض، وصدمة موت زوجتك وبنتك هي اللي مأثرة عليك وخليتك تشوفني في شكلها، مقدرتش أواجهك بكدة، وإنت في الظروف اللي إنت فيها، واستنيت لما تعدي بس لما لقيتك حابب إني أخرج من حياتك قلت خلاص كده كده مش هيفرق معاك العلاج، طالما مش هتشوفني تاني.

صدمتني حقيقة ما قالت، ولم أشعر بنفسي وأنا أسقط، وعندما فتحت عيني وجدتي قد عدت إلى مخدعي، ونائمًا على سريري، وبجانبي مليكة ويقف خلفها صلاح أخو نور، وعلى الجانب الآخر طبيب يحقنني في ذراعي بشيء جعلني خاملًا وهادئًا، وأشعر بثقل في الحركة، تبعها ثقل في جفني، غرقت في النوم إلى صباح اليوم التالي، الذي فتحت عيني فيه ووجدتني وحدي، تخنقني أنفاسي التي بدأت تتزاحم على صدري كلما تذكرت ما حدث، غادرت السرير وأنا أحمل معي خمولًا كبيرًا، وذهبت إلى الحمام للاستحمام، وبينما الماء ينهمر فوق رأسي، وأنا مغمض العينين، بدأ حديثها يتردد بداخلي، ثم أصبحت أسمع صوتها كالصدى وهي تقول لي:

- إنت مريض نفسي ولازم تتعالج.

هرعت بسماع صوت طرق باب الحمام فلا يوجد أحد غيري بالمنزل، وإذ فجأة سمعت صوت سلمى تقول لي:

- حسن أنا هروح أوصل ندى النادي.

سترت جسدي بالمنشفة وخرجت مسرعًا، فوجدت مليكة أمامي فوضعت يدها على عينيها في الخجل، دخلت مسرعًا إلى الحمام، وارتديت ملابسي، وخرجت إليها وملامح الإرهاق والخوف على وجهي، وسألتها بحدة بالغة:

- إنتِ خبطتي على الباب؟

- لا أنا أخدت مفتاح البيت عشان آجي اطمن عليك وإنت نايم، ولما لقيتك بتاخد دش قلت استناك لما تخرج.

اعتراني الغضب وكاد عقلي أن يطير، وقلت بصوت مرتفع:

– لا بقى.... متجننونيش.

أخذت أتلفت يمينًا ويسارًا وأصوب أنظاري إلى جميع أركان المنزل وأنادي قائلًا:

– سلمى.... سلمى.... سلمى.

أمسكت بيدي وقالت لي في شفقة كبيرة، والخوف يصنع تعابير قلقة على ملامحها، وتقول لي بصوت يملؤه الشفقة:

– سلمى إيه بس يا حبيبي اهدي كده عشان خاطري.

أكملت نظراتي الباحثة عنها، وقلت لها:

– أنا لسه سامع صوتها يا مليكة، وقالت لي هتودي ندى النادي.

وبعينين مليئتين بالدموع، قالت لي:

– متقلقنيش عليك يا بابا والنبي، واقعد عايز أتكلم معاك.

سحبتني إلى الأريكة، وجلست بجانبي وقالت:

– أقوم أعملك حاجة تشربها؟

صرخت فيها بضجر شديد:

– أنا مش عايز أطفح حاجة.

أخذت ترتب على كتفي، وتلقى على عبارات تظن أنها تهدأني، لكني لم أكن يهمني شيء سوى ما أشعر به الآن، فقد قاربت على الجنون، وإن لم يكن قد وصلت فعلًا، سمعت صوتها يقول لي برفق:

– لازم تروح للدكتور يا حسن.

أمسكت ذراعها بعنف، وقد احمرَّ وجهي غضبًا، ونظرت لها نظرة تخيفها لم تعتد عليها مني، وقد كانت تتألم من قبضتي، لكنها

لم تبح بشيء ولم تغيب نظرات الشفقة عن عينيها، سألتها في رعونة وصوت مرتفع:

– الكلام اللي نور قالته ده صح؟ !

أومأت برأسها في هدوء شديد، يتنافى مع أهوال غضبي، فنظرت أمامي نظرة مستقرة، ساكنًا مثل الجماد وبعد لحظات قلت لها بنبرة هدوء قاتل:

– مقولتليش ليه من بدري.

– أنا لاحظت كده وإنت في المستشفى، إن مفيش أي شبه بينها وبين مراتك الله يرحمها وعرفتها كده، ولكن بعد لما فقت مكنش ينفع نواجهك بكده، وإنت لسة خارج من غيبوبة، وبعديها كان كل همك إنك تجيب حق سلمى وندى، ومكنش ينفع نواجهك بكده برضو عشان تقدر تكمل اللي إنت ماشي فيه، وتفضل قوي، وشوفنا إن أهم شيء إننا نكون جمبك، لكن بعديها إنت فضَّلت إنك تبعد عن نور، فطلبت مني إني مقولكش حاجة، وكده كده هي مش هتشوفك تاني، لحدٍّ مَّا حصل اللي كنت خايفة منه.

رأيت سلمى تقف أمامي وتمسك بيدي، وتدور بها ليحمل جسدَها الهواءُ في خفة، وسمعت صوت ضحكتها الطفولية تملأ أرجاء المكان.

انهمرت دموعي في صمت موحش، فقد تأكدت حقًّا أني مريض... تركت ذراع مليكة في بطء شديد، ثم غادرت المنزل، ولم أجب عن سؤالها لي إلى أين أنت ذاهب لأني حقًّا لم أكن أعرف إلى أين سيأخذني ذلك الضياع الذي بيت فيه.. ركبت سيارتي وأقلعت

مسرعًا وكادت قيادتي المتهورة أن تقودني إلى طريق أتوقف فيه عن التفكير وأصل فيه إلى أكبر حقيقة وهي الموت.

* * *

– ميس نور الحقيني، أنا مش عارفة هو راح فين... ساب البيت ومشى بعد ما حكيتله على كل حاجة..... أنا خايفة عليه أوي.

– متخفيش يا حبيبتي أنا عارفة هلاقيه فين.

طلبت منها التوقف عن البكاء، ووعدتها إنه سيكون بخير، أغلقت الهاتف وبدلت ملابسها وذهبت إلى المقهى الذي اعتادا أن يتقابلا فيه، وجدته جالسًا على طاولتهما المعتادة، وأمامه كوب من القهوة لا يهتم بالصخب من حوله، يغمض عينيه كأنه في عالم آخر، جلست أمامه فلم ينظر لها حتى قال لها وهو مغمض العينين:

– مش عايز افتح عيني مش عايز أعرف هشوفك مين فيهم، كفايا إني بحس بيكي من نفسك.

أمسكت يده وهي مبتسمة، وقالت محاولة طمأنته:

– صدقني هتبقى كويس، وكل حاجة تمام.... أنا هاخدلك معاد النهار ده مع دكتورة أعرفها كويس، هي جارتنا اسمها ميرنا التونسي.

أخرجت من حقيبتها بطاقة كرتونية، تحتوي على رقمها وعنوان العيادة، وضعتها على الطاولة ورحلت... فتحت عيني وأمسكت بهذه البطاقة وتفحصتها جيدًا وما أن أنهيت قهوتي غادرت المكان.

* * *

– بقالك ٣ أيام تليفونك مقفول، وما بتروحش البيت، ومحدش يعرف عنك حاجة، ومليكة مقطعه نفسها من العياط.

زفرت في حنق ورددت ببرود قاتل:

– كنت مشغول في الشغل شوية.

– إنت كويس؟!

– آه الحمد لله.

– مروحتش للدكتورة ليه؟!

أخذت شهيقًا عميقًا، ثم قلت لها:

– ومش هروح يا نور.... مش هروح... ولو إنتِ السبب في إني أبقى مجنون، مش عايز أسمع صوتك ولا أشوفك تاني.

صمت أعرفه دائمًا ما يأتي حينما تقترب النهاية، تحدثت هي من بعده بنبرة يتخللها البكاء:

– مش هتسمع صوتي ولا هتشوفني تاني، بس إوعدني إنك هتكون بخير وهتتعالج.

– وعد.

غريب لم أفكر قبل نطقها، بينما فلم أكن أنطقها إلا قليلًا؛ لأن العهود تبقى حتى الموت.. أغلقت الخط بعد أن سمعتها، والأغرب من ذلك أنه وعلى الرغم من قولي لذلك، وأنا بكامل قوتي، فإن ضعفها وأنين صوتها يقتلني..... وصلت إلى منزلي ونزلت عن سيارتي، وقبل أن أدخل نظرت في ساعتي وجدتها الثانية عشرة منتصف الليل، أردت أن أرى مليكة لأطمئنها علي، وشعرت بالإحراج لتأخر الوقت، لكن

ذلك لم يمنعني؛ حيث ذهبت إليها وطرقت الباب بلطف، ففتح لي أبوها:

– أنا آسف لو بخبط بابك في وقت متأخر.

وجدت مليكة تنحي أباها عن الباب، وتندفع نحوي وتعانقني، فقال لي أبوها:

– آسف إيه، دا أنا ما صدقت إنك جيت، بقالها يومين مبتكولش ومرحتش المدرسة النهار ده من التعب.

رفعت نظري إليها بعدما ارتسمت على وجهي لوحة جميلة، صنعها دفء عناقها لي، وقولت له:

– آسف مرة تانية لو سببتلكوا مشكلة.

عرض على الدخول لكني رفضت، وأخبرته أني منهك وأفضل الرحيل لأني لم أنم منذ ثلاثة أيام، وما أن ابتعد الرجل عن الباب حتى ضربتني مليكة بقوةٍ عدة ضربات على ظهري، وذراعاها يحيطان بي، وقالت لي بصوت باكٍ:

– أنا كنت خايفة عليك أوي أووي، كده تسيب بنتك كده.

مررت بيدي على شعرها الحريري الأسود، وقبلت رأسها وأنا أقول:

– آسف.

– كل ده كنت فين يا أبو علي؟!

– في الشغل يا ملوكة.

وضعت يدها في وسطها وقالت لي بحدة:

– مفيش مرواح الشغل تاني يا أستاذ.... طالما بتقفل تليفونك.

وقفت على ركبتي حتى ارتقى بمستوى قامتها، وضممت يدي وقولت لها مازحًا:

– مش هعمل كده تاني يا ملوكة.... بس ينفع كده متكليش ومتروحيش المدرسة؟!

ردت في طفولة ممزوجة بأنوثتها الحديثة:

– مبعرفش آكل وأنا قلقانة.... متسبنيش كده تاني.

قبلت رأسها وأنا أقول لها:

– حاضر.... ممكن بقى تروحي تتعشي دلوقتي وتنامي، وبكرة نتكلم؟

حاولت التظاهر بالجدية لكن الدلال كان يغلب على قولها:

– لا بكرة هنخرج... بكرة الجمعة، وإنت معندكش شغل، وأنا معنديش مدرسة.

– حبيبتي أنا ظابط شرطة مفيش حاجة اسمها الجمعة أجازة.

أخفضت رأسها وقالت لي بصوت حزين:

– يبقى إنت شكلك مش عايز تصالحني، ومش عايزني أتعشا.

ضمت يديها راجية كعادتها عندما تطلب مني شيئًا، ونظرت لي بعينين يملؤهما الأمل فقلت لها:

– يااااه عليكي يا مليكة.

– عشان خاطري يا حسن.

استسلمت لها كعادتي، وأخبرتها أني موافق إذا لم يعارض أبوها... عانقتني بقوة، حتى أن عنقي كاد يختنق، وقلت لها مازحًا، وانا أقبض على كتفيها:

– بالراحة يا مليكة عشان صحتي على أدها.

طلبت منها الدخول لتناول العشاء، وعرضت على أن أشاركها، لكني رفضت، وأخبرتها أني سأمر عليها حينما أستيقظ... عدت إلى بيتي وكانت الأجواء هادئة، بدلت ملابسي واستلقيت على الأريكة، حاولت طرد الأفكار السيئة عن رأسي حتى أجد موتي الموقت، وقد نجحت بعد عناء على الرغم من كوني لم أنم منذ ثلاثة أيام.

شعرت بيد توضع على كتفي لتوقظني من نومي، فقمت مفزوعًا في لمح البصر، وأمسكت بسلاحي وصوبته في وجهها، فصاحت خائفة، ورفعت كلتا يديها عاليًا، ثم ابتسمت لي وقالت:

– أنا مليكة يا حضرة الظابط.

أخفضت سلاحي وزفرت في ضيق شديد لما فعلت وربت على وجهها، وابتسمت وقلت لها:

– كل مرة بنسى أسألك دخلتي هنا إزاي؟!

أمسكت بسلسلة معلقة بصدرها بها مفتاحي، وقالت لي:

– من يوم ما إنت دخلت وأنا معايا مفتاحك.

وبعد ثوان ضحكت دون سبب مما جعلني أتعجب، وضعت يدها على فمها، وهي تقول في سخرية:

– بقالك كتير بتلاقيني بتمشي في بيتك وإنت متعرفش، وأول مرة تسألني النهار ده.

ضحكت ثم فركت عيني العابثتين وقلت لها:

– أنا افتكرته ضاع مني؟

تغاضيت عن أن آخذه منها، خصوصًا وأنها تعتبره شيئًا قيمًا وتعلقه بصدرها. سحبتني من يدي حتى أنهض، ثم ظلت تدفعني من وسطي حتى أدخل الحمام لأستعد ليومها الخاص، وبعد إغلاقي لباب الحمام قالت لي بصوت مرتفع:

– إحلق دقنك يا أبو علي.

انتهيت من حلاقة ذقني، وحين فتحت الباب تفاجأت منها، فقد فتحت دولابي واختارت ملابسي وقامت بكيها، انتظرتني حتى أرتديها وحين انتهيت خرجت إليها... هزت رأسها في مرح وأشارت لي بإبهامها ليدل على إعجابها ثم قدمت لي عطرًا إشترته لي كهدية، ووضعت لي منه قبل مغادرتنا من المنزل... ركبنا السيارة سويًّا وقبل أن أقلع سألتها قائلًا:

– تحبي نروح فين؟

– مفاجأة، اطلع بس على المعادي؟

أقلعت بالسيارة دون أن أسألها شيئًا أتبع إرشاداتها فقط، حتى طلبت مني التوقف، سألتها قائلًا:

– أقف ليه بس في إيه هنا؟

توقفت بالسياة فوجدتها تمسك بيدي، وتقول لي:

– النهار ده هتكون أول جلسة علاج ليك.

اعترى الغضب ملامحي، ونظرت لها في ضجر شديد، وقبل أن أنطق بأي شيء وضعت يدها على فمي وقالت:

– أنا عارفة إنك مضايق، بس إنت وعدتني، أنا حبيت أول خطوة في العلاج ناخدها سوا يا بيبايا... وحياتي عندك ما ترفض:

رفضت الفكرة لأني لا أقتنع بذلك، ولم أحب قط أن أجربه، ولم أتخيل يومًا أني سأحتاج لذلك، وأرى أن الإنسان طبيب نفسه، بالإضافة من عدم رغبتي أن يعلم أحد من أصحاب الأحاديث الفارغة والكلام الزائف من الإعلام والصحافة، أني أتردد على هذا المكان... تركت يدها وأدرت السيارة، وقبل أن أتحرك فكرت في ظل الظلام الذي صنعه جفناي المغلقان قبل أن أقلع أن الأمر لن يكون بهذا السوء، وأنه لن يضرني بشيء إذا جربت ذلك على الأقل حينها أستطيع أن أبرر لنفسي سبب رفضي ومعرفة أن كنت على صواب أم أنني مخطئ، أخذت شهيقًا عميقًا، ثم قلت لها بصوت هادئ:

– بس لو معجبنيش الموضوع مش هاجي هنا تاني، اتفقنا.

صفقت في مرح، ونزلت عن السيارة بسرعة، وفتحت لي الباب، وصعدنا سويًّا على درجات السلم لتعطل المصعد، وكلما صعدت أكثر كانت فكرة الهروب تتملك عقلي وكل جوارحي أكثر فأكثر، وبينما أنا تائه في التفكير وجدت نفسي قد وصلت، لم أجد أحدًا من الزوار، فإما أن أكون أنا أول الحاضرين، وإما أنه لا يوجد أحمق غيري يأتي إليها هنا.... توجهت مليكة إلى موظفة الاستقبال وأخبرتها أن لدينا ميعاد

الآن، فطلبت منها الانتظار حتى تخبر الطبيبة بالداخل، جلسنا لدقائق حتى خرجت الموظفة وقالت لي:

– اتفضل، ادخل يا أستاذ حسن.

أمسكت بيد مليكة وأنا أنهض من على الكرسي فلم تنهض معي، وأخبرتني أنه ليس من الممكن اصطحابي معها، وأنه من الأفضل أن تنتظرني، لكني كنت خائفًا عليها، وأبيت أن أتركها واصطحبتها معي إلى الداخل، وجدت فتاة عشرينية، تلبس ملابس عادية جدًّا، غير ذلك المعطف الأبيض الذي يرتديه الأطباء دائمًا، وتكتب في الأوراق الموضوعة أمامها على المكتب، وتعطي لذلك تركيزًا كبيرًا، شعرت ببعض الحرج أثناء دخولي وبعض الضيق من كوني هنا، لكن انتهى كل ذلك حينما رفعت رأسها ونظرت لنا، عرفت حينها أنها خلقت لتبتسم؛ حيث إن وجهها وابتسامتها مريحة جدًّا، فلا تتوقف ضحكتها على شفتيها الحمراوتين، بل إنها تضحك بعينيها البنيتين اللامعتين، وتبرز ضحكتها خديها المليئين بعض الشيء، وأشعة الشمس الصادرة من النافذة خلفها تعطي بريقًا على بشرتها البيضاء النضرة، وحجابها يحدد وجهها ببراعة مما يصنع من وجهها قالب حلاوة، تتناغم مقاديرة لتصنع وجهًا مريح النظر إليه، وقفت ورحبت بنا وجلسنا أنا ومليكة أمامها على المكتب وبدأت في سؤالى

– إنت بتحبها أوي كدة؟

– مين دي؟

ردت وهي تكمل كتابتها دون النظر إلينا:

– البنوتة الصغنونة اللي معاك، إنتوا مرتبطين؟

فرد مليكة بتلقائية وسخرية

– يا ريت والله كنت كبيرة شوية، كنت اتجوزتوا، بس أنا بعتبره زي بباية يعني،

ضحكت لما قالته، ثم طلبت منها برفق أن تنتظر بالخارج، فنظرت إلى مليكة حتى تجد الإجابة في نظراتي، وبدا علي أني لست معترضًا، فربما تريد أن تحدثني بشيء لا يصح لمن في عمر مليكة أن تسمعه، وما أن خرجت مليكة نظرت لي وهي تتدقق بعيني جيدًا في لحظة من الصمت، ثم قالت لي:

– إنت في شخص غالي عليك جدًّا مات من قريب، ممكن تكون زوجتك أو حد من ولادك أو والدتك؟

تعجبت مما قالت فهي تتبع أساليب العرافين في قول شيء، ربما يكون صائبًا أو خائبًا، لم أرد على سؤالها، أكملت هي قولها:

الخوف اللي في عنيك اللي خلاك مُصِرّ أن البنت دي تخش معاك؛ لإنك خايف تسيبها برة يحصلها حاجة ده معناه إنك بتخاف زيادة عن اللزوم، والخوف ده ناتج عن فقدان شخص كان شيئًا كبيرًا في حياتك.

تعجبت منها فقد وصفت ما شعرت به دون أن أنطق بشيء، وذلك يخرج من بين إما أن تكون ضربة حظ أو أن أحدًا أخبرها عن حياتي أو أنها تعرفني عن طريق الصحافة أو الإعلام أو حتى السوشيال ميديا أم أنها حقًّا بارعة في تحليل ما يحدث.

– آه زوجتي وبنتي... وده شيء مصر كلها عرفاه.

نظرت لي باستغراب شديد ثم سألتني بملامحها قبل لسانها:

– هو حضرتك تبقى مين؟

– حسن مصطفى.

– مين حسن مصطفى مش واخده بالي؟

شعرت باستحسان، كونها لا تعرف عني شيئًا على الرغم من عدم تصديقي ذلك، وبعد لحظات ستطلب مني الآن أن أقص عليها كل شئ، يغمرني الشعور بالثقل من أن تأتي هذه اللحظة لأنني لا أعرف من أين سأبدأ.... قالت لي والثقة تملؤها:

– مهما كان اللي بيتقال عنك فالدكتور النفسي بتاعك مش هيصدق غير اللي هتقوله انت.... مش هقولك تحكيلي اية انا عايزاك تنام على الشازلونج اللي هناك دة وتقوللى إنت حابب تحكى إيه.

انصعت خلف طلباتها، وذهبت للنوم على ذلك المقعد المريح، أغمضت عيني لثوانٍ وفتحتها حينما سمعت صوت موسيقى هادئة ملأت أرجاء المكان، بينما هي جلست على كرسي بجانبي وسألتني قائلة:

– دي أول مرة تروح لدكتور نفسي؟

رددت في جفاء شديد:

– لا متجننتش قبل كده دي أول مرة.

قابلت جفائي بابتسامة، وقالت لي:

– ليه عندك فكرة إن اللي بييجوا هنا مجانين؟!... اللي بييجي للدكتور النفسي بييجي يدور على نفسه، عشان يلاقي حد يسمعه، ويلمس الشيء اللي جواه اللي مش قادر هو يوصله، لازم دايمًا

تعرف أن وانت جوة الدايرة مبتقدرش تشوف حل مشكلتك، بس لو شخص قريب منك برة الدايرة دي ممكن يشوف اللي مشفتهوش عنيك!

يلا إحكيلي.

أظلمت عيني مجددًا للحظات، وحين فتحتها أصبحت ذكرياتي كلها أمام عيني كأني تحدث الآن وقلت لها:

– أحكيلك منين؛ من أول ما متّ بالحياة، ولا أول ما شافت عيني النور بعد ما ادفنت في الضلمة، النور اللي لما قربت منه لقيت وراه سواد أكتر، لقيتها بوابة جديدة للموت... تايه فيها، بستخبى في الوجع اللي أعرفه عشان خايف من الوجع اللي معرفوش.... مش عارف كل الطرق بقت شبه بعض، ولا عنيه اللي مبقتش تميز..... مش عارف أنا ميت ولا لسة عايش؟!

طب هما ماتوا ولا لسه عايشين، طب ليه بشوفهم وبسمع صوتهم حواليه، واضح إنهم بيردهالي عشان مت معاهم فضلوا عايشين جوايا، وبشوفهم قد عنيه، فضلوا ساكنين كل نفَس فيا، كل ذكرى ألم بفتكر فيها كل صرخة مزقت قلبي وأنا بصرخ، وبنده إنتوا فين سايبني هنا ليه.... عيني بقت بتشوفهم حوليا بيضحكوا، وبيتكلموا، ويبصولي بعين الشفقة، وأبصلهم بعين الحب، وأمد إيدي ملمسهمش... لحد ما قبلت نور، كانت أول شيء ملموس شوفته قصاد عنيه على هيئة سلمى، وللأسف صدقت وجريت عليها زي الطفل وحضنتها، ما صدقت ألمس روح بتتجسد قصاد عنيه في شخص ملوش أي ذنب أن يلاقي مني المعاملة دي والجفاء... نور....

نور اللي متردتش لحظة إني أفديها بروحي، وأخدت الرصاص بدالها، زي ما اتمنيت أعمل مع سلمى وندى... وانكتبلي عمر جديد عشت فيه مع نور ومليكة وبقوا هما حياتي، وبرغم إني كنت فاكر الحياة بتشدني، كنت ناسي إن الموت تأثيره من إنه يسبني أعيش، وطلع ده كله وهْم، لا طلعت نور شبه سلمى، طلعت بس أنا اللي رافض أشوف سلمى في عنيه ماتت.

دونت شيئًا على الورقة التي تحملها ثم قاطعتني قائلة:

– بتفتكر والديك كتير، وهل لما ماتوا والديك كنت بتشوفهم زي سلمى وندى؟

ترحمت عليهم، ثم على وجهي ابتسامه خفيفة، راحت أدراج الرياح مع تيارات أحزاني.

– أكيد بفتكرهم دايمًا لكن ولا مرة شوفتهم زي سلمى وندى.

أكملت أسألتها قائلة:

– إنت عمرك حسيت بنور على إنها نور، ولا كنت دايمًا شايفها سلمى قصاد عنيك؟

– للأسف شفتها على إنها سلمى لكن حسيتها على إنها نور.

لم تبد تعليقًا على شيء، بل مضت مكملة تسألني وكأنها تبحث عن شيء داخلي.

– كان إية انطباعك لما لقيت الحياة بتشدك ليها مرة تانية؟

أخذت نفسًا عميقا أحاول فيه تهدئة الألم الذي يعج بداخلي، ثم قلت لها:

– موت إتعودت عليه أحسن من حياة معرفهاش، عشان كده إخترت الهروب، لكن يارتني بأقدر أتقبل الأمور أد ما أنا بأقدر أكون صريح.

تركت ما بيدها وعضت على شفتيها، وقالت لي:

– مجربتش تشوف حياتك مع نور؟

– حياتي مع نور مكنتش تجربة، نور دخلت حياتي ورجعتني أعيش من غير ما أحس.

ويفضل السؤال إزاي شايفها على إنها سلمى وحاسسها على إنها نور.

– خايف.

– لا أنا ميت من الخوف، خايف أهرب أرجع يكون فات الأوان، وخايف أفضل أضعف وأموت أكتر في الحياة... أنا تعبت.

وضعت يدها على كتفي وابتسمت لي وقالت:

– إنت مش محتاج تهرب إنت محتاج تخرج من ورا الإزاز اللي حبست فيه نفسك، وانت بتراقب العالم من وراه، مش محتاج تموت انت محتاج تمَوِّت الوجع اللي جواك وتفتح حضنك للحياة.

قامت من مقعدها وهي تقول لي:

– إنت هتبعد عن نور الفترة دي لحد ما تكون مستعد تقبلها على إنها نور، وما تحاولش تعير انتباهك لأي شيء يظهر لك إن كانت مراتك ولا بنتك.

كتبت لي علي بعض الأدوية، وأخبرتني أن الأمر يتعلق بي،

وليس بالأدوية، وأنه يجب علي ألا أستسلم لأحزاني التي هلكتني كليًّا، حددت موعد الجلسة في الأسبوع المقبل في نفس ذلك الوقت، رحلت وأنا أعرف أن سآتي الجلسة القادمة، ولن أمانع ذلك، وحين خرجت أقبلت على مليكة مسرعة وقالت لي:

- إيه رأيك؟

- الموضوع مش وحش زي ما اتخيلته.

أمسكت بيدي أثناء خروجنا من العيادة وهي تقول لي:

- يالا قولي: هتخرجني فين يا أبو علي؟

* * *

الفصل السابع

(وإن حِدْتُ عن الطريق فكل الطرق تؤدي إليكِ)

– لسة مفهمتش إن كل شيء حصلك كان بسبب... وإن الموت مكنش رافضك، بس ربنا كان بيحبك وعارف ومدبر لك حياة غير اللي مت فيها، كان عايز يوريك إنه مش ناسيك، وإنه هيرجع لك حقك، وأديك أهوه واقف على رجليك، كل رصاصة دخلت جسمك عارفة إنها مش هتطلع بروحك، عارفة إنك معدنك أصلب منها، وإنك راجع تاني وأقوى من الأول، بس إنت قول يارب.... يارب.

توقفت عن الحديث مع نفسي، وتوقف معه العدْو، ووقفت لألتقط أنفاسي بعدما قطعت مسافة لا تقل عن عشرة كيلو مترات، فقد كسرت الروتين اليوم، وقررت أن أعود لعادتي القديمة؛ وهي الجري صباحًا، أخذت ما تبقى من الطريق سيرًا إلى بيتي، وتزامن ذلك مع خروج مليكة من بيتها لتستقل حافلة المدرسة، وحينها رأتني بملابسي الرياضية، وطلبت من سائق الحافلة أن ينتظر، وأقبلت نحوي قائلة:

– صباح الفل يا حضرة الظابط إيه النشاط ده؟!

انحنيت لأقبل رأسها وأنا أقول لها:

– صباح الفل يا جنتي.

كانت ملامحها تبوح بالسعادة قبل أن ينطق فمها قائلًا:

– أنا مبسوطة أوي وحاسة إنك أحسن.

– الحمد لله يا حبيبتي.

طلبت منها أن تذهب إلى حافلتها حتى لا تتأخر، وعودت إلى بيتي، بدلت ملابسي ثم غادرت متجهًا إلى السجن المحتجز به أمجد، فاليوم هو يوم تنفيذ حكم الإعدام، والغريب إنه طلب رؤيتي قبل تنفيذه، وأثناء قيادتي جاءني اتصال بنبأ سيئ للغاية، وحين وصلت إلى هناك كان بانتظاري مأمور السجن الذي رحب بي ترحيبًا حارًّا، وسرنا سويًّا إلى منصة الإعدام، ووجدت أمجد ينتظرني على أحر من الجمر؛ حيث قال له المأمور:

– هو تكرم ووافق إنه ييجي، يا ريت متندمنيش على كدة؟

رد في هدوء يتجافى مع رعب قلبه في مثل هذه اللحظات:

– أنا عايز أتكلم معاك لوحدينا.

تراجع من كانوا حولنا إلى الخلف، واقترب هو وهمس بأذني قائلًا:

– كنت خايف منك بالرغم من كل الوقت الطويل اللي مر على الحادثة، وعلى الرغم من اللي شوفتك فيه، كنت عارف برضو إن هييجي اليوم ده، الأسد مهما صابه المرض برضو أسد ولازم يتخاف منه.

ثم أكمل وهو يضحك ويقلد صوتي حينما كنت أصرخ قائلًا:

– بس الأسد ده أنا ذليته وموت حريمه كلهم، وفضل يصرخ وهو مرمى على الأرض..... سلمى.... ندى... عاااا....ومش كده

وبس، ده أنا خليته يسيب شغله، وبقى مريض نفسي، ده معناه إني أخدت منك حقي من قبل ما تاخد حقك مني ،وكده خالصين... حتى في الموت أنا محظوظ عنك، هروح أشوف سلمى وندى وأقولهم إنك بتحب جديد!!

قاطعته بضحكتي التي لم يكن يتوقعها بعد كل ما قاله من حديث يثير الأعصاب ثم ربَّتُّ على كتفه وأقترب من أذنه كثيرًا وقلت له:

– مش سلمى وندى اللي هيستنوك، بنتك اللي هتستناك.

أصابه الجنون، واقتظت عيناه، وقال لي بصوت مرتفع وهو يمسك ملابسي في غضب وخوف:

– إنت موتها؟!

ضحكت مجددًا وأنا أنزع يده عن ملابسي، وأقول له:

– لا يا راجل، أنا مش بالفُجر ده، مش هقتل طفلة، بس يا عيني عشان أبوها إنسان حقير زيك، هي بس مستحملتش إن أبوها هيتعدم النهار ده، ونظرة صحابها في المدرسة إن أبوها قتال قتلة، فانتحرت... قتلْت مراتي وبنتي بسوادك، وقتلت بنتك بغبائك شوفت بقى.

عاد بظهره إلى الخلف حتى التصق بالجدار، وأخذ يبكي وينادي على ابنته، وحين اقترب منه المسئولون عن تنفيذ حكم الإعدام أخذ ينطق بعبارات، كثيرًا ما كانوا يسمعونها سابقًا برفض الموت عند تنفيذ حكم الإعدام... أوقفوه على المنصة ورفض أن يرتدي غطاءً على وجهه وآخر نظراته كانت نظرة خالية من الحياة قابلت الموت قبل خروج روحه من جسده، بينما أنا أنظر له بجمود، ونظراتي الأخيرة تملؤها الانتقام، وما أن انتهى كل شيء، رأيت فتاتي الصغيرة تمسك

بيدي وبسمتها تخبرني بسعادتها، وزوجتي تضع يدها على كتفي وتنظر إلى في فخر كبير، وكأنها تخبرني قائلة: (أحسنت عزيزي).

أمسكت بيدها هي الأخرى وسرنا سويًّا حتى أنا لم أكن أبالي أو أعير انتباهي لأي كلمة أسمعها ممن كانوا حولي، سرت في هدوء أنظر إلى زوجتي تارة وأنا مبتسم، وإلى طفلتي تارة أخرى حتى توقفا كلاها وتركا يدي، ووجدت زوجتي تحمل ابنتي، ويلوحان لي مودعين، ثم اختفيا من أمام عيني.

* * *

– دي كانت آخر مرة أشوفهم فيها ومن بعدها مشفتهمش تاني.

انتهت من سماعه وبدت ملامحها راضية عما كانت تسمعه، سوى شعورها المؤسف مما قامت به ليلى بعد علمها بخبر إعدام والدها والحالة السيئة التي أصبحت فيها بعد إنقاذ حياتها من محاوله الانتحار الفاشلة التي سعت إليها، خلعت نظارتها التي يراها بها لأول مرة، ثم قالت له بصوت يملؤه هدوء يتناغم مع الموسيقى الهادئة التي تملأ كينونته بالراحة النفسية والسكينة:

– ممكن ظهورهم قصاد عينك كان مرتبط بانتقامك... ممكن توصف لي إحساسك إيه بعد ما شوفته قصاد عنيك بيتعدم؟

قطع رأسه مسافة نصف دائرية ذهابًا وإيابًا، وحلَّق عائدًا بالذكريات إلى هذه اللحظة، ثم زفر في هدوء وقال لها:

– راحة كبيرة جدًّا، وإحساس ميتوصفش وميكفيهوش كلمات، حسيت ساعتها إني رضيت، وبدأت أتقبل غيابهم بعد اللحظة دي، اللي

قدرت فيها أريحهم في تربتهم، وأقدر أقولهم وأقول لنفسي أنا جبت حقكم.

أشارت إليه بأصبعها منبهة لأحدى كلماته:

– الرضا، أهو إنت لما رضيت بكل شيء حصل لك، بدأت تصدق الواقع، وتصديقك للواقع هو اللي بعد عنك هواجس الخيال والافتراضات، أنا مبسوطة جدًّا لأنك بتتحسن بسرعة وقربت جدًّا من إنك تخف.

شعر بالسعادة التي لم يظهر منها شيء خلف ذلك الوجه الهادئ حينما قالت له: إنه اقترب من الشفاء، وأيقن أن الطب النفسي ليس بالشيء السيئ أبدًا، فهو بحثك عمن تستطيع إخراج كل شيء أمامه دون أن تشعر بثقل ذلك.

صمتت للحظات وهي تحدق به ثم طلبت منه قائلة:

– عايزاك تحكيلي عن أحلى يوم عشته من بعد حادثة زوجتك وبنتك؟

رد هو بتلقائية بالغة، دون أن يفكر، ثم تبع ذلك تردد ملحوظ بملامح وجهه:

– معشتش يوم حلو من ساعتها.

شرد لثوان ثم عاود النظر لها وقال لها:

– في يوم واحد.

ردت هي في لهفة لم تعتد عليها في التعامل مع مرضاها:

– طب إحكيلي يلَّا.

ومجرد تذكره لذلك اليوم داهمت بسمته شفتيه وبرقت عينيه وبدأ يروي ما حدث.

* * *

– يا بنات خلصوا نفخ بلالين بسرعة واربطوا كل خمسة في بعضهم،

ثم نظرت لصديقتها هاجر وقالت لها:

– وإنتي يا هاجر علقي البنر معايا.

تفحصت هاجر هذه اللفتة الكبيرة الموضوع عليها صورة حسن، والمكتوب عليها عبارات التهنئة بعيد الميلاد، وقالت لصديقتها هاجر:

– هي مليكة مش قادرة تصوره صورة أحلى من دي!

بينما كانت مليكة تسترق السمع قالت لها:

– ده انا صورتهاله بالعافية يا ميس نور، فضل يقولي مبحبش اتصور،

التفت لها نور وابتسمت ثم قالت:

– لا هي حلوة يا حبيبتي تسلم إيدك.

علقت نور وهاجر اللافتة بينما أكملت الفتيات من هم بعمر مليكة نفخ البلالين وتعليق الزينة، ثم أخذ جميع الحاضرين قطعة من الورق المقوى المربع، وكتب له جملة خاصة به، وقاموا بتثبيتها على الحائط ثم أحضروا قالب الحلوى، ووضعه على الطاولة وأطفئوا الأنوار واختبئوا جميعًا، ثم قامت مليكة بالاتصال بحسن وحين أجاب قالت له:

– ألحقني يا حسن أنا محتجاك ضروري.

ثم أغلقت الخط فهرع لذلك ووثب من فوق السرير، وفتح الباب وأثناء نزوله على السلم إلى فناء منزله اشتعلت الأضواء ووجدت من يطلق مدافع الأوراق الملونة، وجرت مليكة ناحيته واحتضنته بقوة وقالت له:

– كل سنة وإنت معايا يا أبو علي.

لم يكن يصدق ما شاهده حوله؛ حيث أصابه الذهول، ومرت عيناه مرًّا سريعًا على جميع الحاضرين، وكان عددهم خمسة، وكان لا يعرف منهم أحد سوى إسراء صديقة مليكة المقربة، وكان ينقصهم نور التي أتت من خلفه، ووضعت فوق رأسه طرطورًا وهي تضحك وصديقتها تقف بجانبها، صديقتها هاجر سعيدة بتلك السعادة على وجه صديقتها، وما كان به إلا أن يضحك ولم ينزع ما برأسه ثم نظر إلى اللافتة وقال:

– إيه اليفطة دى! هو أنا نازل مجلس الشعب!

تعجبت نور منه وقالت له:

– لا مش نازل مجلس شعب، إنت ناسي النهار ده إيه؟

وكان إلى هذه اللحظة لا يتذكر أنه يوم ميلاده، ورد سؤالها بسؤال

– إيه؟!

– ٧ إبريل يا حسن عيد ميلادك..... كل سنة وإنت طيب.

كان نظراته تحتضنها، بينما كانت مليكة لم تنته من عناقها له، وضع يده على كتف مليكة وقال لها:

– حبيبتي ممكن أسلم على الضيوف بس؟

هزت رأسها في طفولة بالغة وهي تفلت ذراعيها، مد يده ناحية نور وسلم عليها

وهو يقول:

– وإنتِ طيبة يا نور.

ومن ثم عرفتني على صديقتها قائله:

– دى هاجر يا حسن صحبتي وبعتبرها أختي.

– أهلا بيكي إتشرفت جدًّا.

رحب بباقي الفتيات، ثم تجمعوا حول الطاولة التي محورها قالب الحلوى واشتعلت الشموع، وكانت تقف على يساره مليكة، ويده على كتفها، بينما تقف على يساره نور، التي قامت بوضع يدها على وسطه وتشبست بملابسه، فتسللت يده هو الآخر إلى كتفها مما أشعرها ذلك بالخجل، وكانت هذه اللحظة تصور ثلاثتهم بالأعمدة التي تستند عليها هذا المبنى الهائل للسقوط، وأثناء نشيد عيد الميلاد رأى زوجته وابنته المتوفاتين، يقفان بين الحضور على الجانب الآخر، ويقولون النشيد مع الحاضرين، فما كان عليه إلا أن ينظر لهم شاردًا ويبتسم، حتى اختفيا بعد نهاية تلك المقطوعه الموسيقية... دائمًا لم يكن يبحث عن تفسير لرؤيته لهم أو يسأل نفسه: أهذه أشباحهم أم عقله يوهمه برؤيتهم من كثرة اشتياقه لهم؟!

تعجب الجميع من شروده المصحوب بابتسامته وعدم انحنائه ناحية الشموع ليطفئها بزفير، حتى أن مليكة قد لوحت بيدها من أمام عينيه حتى انتبه لهم وزفر مطفئًا للشموع... أضيئت الأضواء، وبدأ كلٌّ

منهم في تقديم هديته، وكان أهمها بالنسبة له هما هديتا مليكة ونور، والذي يعتبر وجودهما هي الهدية الكبرى في هذا اليوم الذي غاب عن باله من كثرة ما يحمله من هموم وأحزان قاتله.... قدمت مليكة هديتها أولًا وأصرت على أن يفتحها الآن، وحين فتحها وجدها ناحوته صغيرة بها رجل يبتسم وصبية صغيرة تحتضنه ويحيطها إطار زجاجي دائري مثبت على قاعدة بلاستيكية، مكتوب عليها في وجهتها: (أحبك أبي).

برقت عيناه لرؤيتها، واستحسنها كثيرًا وقبَّل يدها وهو يقول لها:

– ربنا يخليكي ليا.

ومن ثَم قدمت نور هديتها وعيناها تلمعان من شدة السعادة التي تغمرها، وقالت له:

– دي متفتحهاش دلوقتي.

ودّ أن يداعبها وتظاهر أنه سيفتحها حتى أنها أمسكت بيده وقالت في شدة وحزم:

– حسن إياك تفتحها هقتلك.

ضحك لها وهو يهز رأسه وقال لها:

– خلاص مش هفتحها.

ثم عاد يكرر فعلته فأمسكت بيده مرة أخرى وقالت له محذرة:

– حـــــسن.

– مين فينا دلوقتي بيتعصب وبيتعامل على إنه ظابط؟!

– إنت يا بيه: إسمع الكلام وخلاص، قلت متفتحهاش يبقى هي متفتحهاش.

– مش يمكن قنبلة.

ضحكت وهي تترك يده وعيناها تهرب من عينيه في خجل شديد، وقالت له برقة تتنافى مع جديتها في الحديث:

– لا مش قنبلة.

أغلق عينًا واحدة وحرك رأسه إلى اليسار، ثم عاد بها إلى موضعها ببطء وهو يقول بمرح وسخرية:

– ولا قنبلة، وإنتي بتضحكي عليا.

لاحظت مليكة أنه يتعامل على غير عادته، فَرُوحُه المرحه تلك لم تظهر إلا في هذه اللحظات التي تحمل السعادة الحقيقية في كل ثانية؛ حيث إن ذلك الوجه العابث الآن يصنع البسمة على وجه أحدهم وهو ما تمناه قلبها.

انتهى عيد الميلاد ورحل الجميع ولأول مرة منذ وقت طويل يملأ قلبه شغف معرفة شيء، وهو محتويات ذلك الصندوق الأحمر التي أهدته إياه نور، جلس ووضع الصندوق على رجليه، وأزال غطاءه فوجد ظرفًا أبيض في قمته، وأسفله قميص وبنطال جديدان، تفحصهم فحصًا سريعًا، ثم فتح الظرف ليوجد داخله ورقة مطوية قام بفردها وبدأ في قراءتها:

(عزيزي يبكي قلبي كلما رأيت الحزن في عينيك... أحببتك ولا أعرف كيف لم أحبك حينما تألمت، أحببتك فقط حينما صَمَتَّ، وحين أحببتك تألمتُ لأنني لا أستطيع أن أمحو ألمك... فبداخل صدرك هناك جنة يغطيها ثرى الأحزان، تلك الجنة هي قلبك، فمهما كان لهب جوفك أتمنى أن أقطن فيه يومًا، مهما كلفني الأمر؛ لأني أؤمن جيدًا أن

خلف كل ذلك الجمود شخص ينتظر معجزات السماء).

أعاد طي الورقة في سعادة بالغة تناسى معها كل شيء، وخلد إلى النوم في راحة كبيرة.

* * *

– ليلى أنا عارف إنك بتكرهيني جدًّا بس مش بإيدي.

رفعت رأسها التي تدفنها بين راحتيها ونظرت لي بعينين مليئتين بكره لا يليق بطفلة في مقتبل المراهقة، وقالت لي:

– ليه أخدت مني بابا... كان ممكن تسامحه.

تحركت في مجلسي على سريرها إلى الأمام قليلًا ووضعت يدي فوق يدها.... دفعت يدي عنها في غضب، قبضت يدي المرتعشة وأنا أقول لها في هدوء:

– مكنتش ممكن أسامحه بس ممكن أعتبرك زي ندى بنتي اللي أبوكي موتها من غير ما يكون ليها ذنب في أي شيء.

صوبت أنظارها نحوي مستبدلة ذلك الكره بنظرات عطف فاستحسنت استجابتها لكلامي:

– عارف إن ملكيش ذنب في أي شيء، بس حطي نفسك مكاني؟!

بدأت في البكاء وحاولت منع ذلك، لكن عباراتي لم تكن مجدية، وبعد بضع لحظات شعرت فيها باليأس نهضت من مقامي لأرحل وقبلت رأسها فنظرت لي وقالت بصوت باكٍ:

– بابا وحشني أوي.

لم أكن أعرف حينها ماذا علي أن أفعل، لكني وعدتها أن أكون بجانبها دائمًا وطلبت منها قبل أن أرحل أن تعود إلى مدرستها التي انقطعت عنها لمدة شهر ونصف... رحلت عن منزلها بعد أن أخبرت رانيا أنني سآتي لزيارتها كل أسبوع ولم تمانع ذلك... رن هاتفي وأنا أقود سيارتي متجهًا إلى عملي فوجدتها طبيبتي المبهجة ميرنا التونسي، أسرعت في الإجابة:

– الدكتورة ميرنا بنفسها بتتصل بيا... هو انا نسيت معاد الجلسة ولا إيه؟

– لا منستش ولا حاجة عايزاك ضروري يا حسن.

تعجبت منها وأخبرتها أني سأصل إليها بعد نصف ساعه، وقدت مسرعًا حتى وصلت مبكرًا عن ميعادي المحدد... وجدت العيادة مزدحمة بعض الشيء، فعلمت حينها أن جلستي دائمًا كانت في يوم العطلة، كانت هي بانتظاري حينما وصلت، سلمت عليها وذهبت لأجلس على كرسي الاعتراف المعتاد لكنها قالت لي:

– حسن، تعالى اقعد قصادي، هنا من النهار ده إنت اللي هتحدد هتقعد فين، يا إما قصادي على المكتب ولا لسة محتاج تنام على الشازلونج.

بدا ما تقوله لي مبهمًا بعض الشيء، لكني كنت أتوقع أن تقول لي شيئًا مهمًّا مما يظهر على ملامحها من جدية، أخذت شهيقًا مناسبًا لراحتها ثم قالت لي:

– إنت مستعد تواجه نور دلوقتي؟

لم أستطع جوابها كنت مترددًا بين مخاوفي وطموحاتي نحو

هذه اللحظة التي أشعر فيها أني قد شفيت، وفي الحقيقة أني قد اشتقت إليها كثيرًا، وبعد صمت كان سيد هذه اللحظات العصيبة... كررت كسر ذلك الصمت بسؤال:

- بتسألي لية؟

- رد عليا: إنت بتحبها؟

- معرفش.

- نور فرحها بعد أسبوع.

شعرت بالصدمة القاتلة وضيق أنفاسي الصارخة التي قيدتها قيود الخوف من أن أفقد أحدًا آخر، علمت حينها في هذه اللحظة أنها تمتلك شيئًا بداخلي، وقررت ألا أكابر وأعترف لنفسي أثناء شرودي الذي طال أمام طبيبتي بأني أحبها فحينما كررت سؤالها مرة أخرى:

- بتحبها؟

هززت رأسي وأنا أخفضها وقلت لها في أسى شديد وحزن:

- للأسف بحبها.

قامت من مقعدها الرئيسي وجلست على الكرسي الذي يقابلني في الناحية الأخرى حتى تكون قريبة مني وقالت لي:

- وهو اللي بيحب بيوطي راسه لما بيقول إنه بيحب.... اللي يحب مبييأسش، هي حاربت علشانك، جه دورك إنت إنك تحارب علشانها على الأقل لو مكسبتش مخسرتش شرف المحاولة.

رفعت رأسي لها فربتت على كتفي، وكأنها تدفعني وتحرك بداخلي الأمل... غادرت العيادة بعد أن شكرتها متجهًا إلى منزل نور،

أحضرت باقة من الزهور واتصلت بها؛ حيث وجدت هاتفها مغلقًا، فلم أبالي ذلك، وتوجهت إلى بيتها وطرقت بابها... تأخرت الاستجابة حتى أنني كدت أن أرحل حتى فتحت لي أمها فعلمت أن سبب التأخر هو ثقل حركتها بالكرسي، واستنتجت من ذلك أن نور غير موجودة بالمنزل، سلمت عليها وطلبت مني الدخول، أمسكت بمقبضي كرسيها ودفعته برفق إلى الداخل، وجلست أمامها فقالت لي:

– تشرب إيه؟!

– متشكر جدًّا.... هو نور مش موجودة؟

– لا يا بني مش موجودة.

نهضت في حرج شديد واعتذرت لها على مجيئي بدون موعد وعلى ما سببته من أضرار ومشاكل في المرة السابقة، ثم استأذنتها في الرحيل لكنها طلبت مني الجلوس للحديث معي:

– إنت عارف يا بني إن نور آخر خلفتي، وإن كل أم عايزة تفرح ببنتها، متقفش قصاد سعادة نور هي رجعت لخطيبها تاني ومبسوطة معاه ونسيتك.

أومأت برأسي في ضيق شديد وتوجهت ناحية الباب، وأنا أحمل باقة الزهور على يدي، وقبل أن أخرج إلتفتُّ لها وسألتها:

– متأكدة إنها مبسوطة معاه.

– المتأكدة منه إنها مش تعيسة زي ما كانت معاك.

أغلقت الباب ونزلت إلى سيارتي وركنتها في مكان قريب على مطلع الأنظار لمدخل بيتها، وبعد ساعات من المراقبة نزلت من سيارة

أجرة هي وخطيبها وعلى وجهها ابتسامة عريضة، وقفا سويًّا للحظات عند مدخل البيت، ثم ودعها وركب سيارة الأجرة مغادرًا، وما أن رحل نزلتُ عن سيارتي ولحقت بها قبل أن تصعد وناديتها:

– نور.

التفتت إلي بعد لحظة من الجمود تحاول فيها التهيؤ لمواجهتي، وضعت يدي على كتفها، فاستدارت وهي مغمضة العينين، وقالت لي بجفاء وحزن وهي تفتح عينيها المليئتين بالدموع:

– ها، شايفني سلمى ولا نور؟!

– مش مهم شايف إيه المهم حاسس بإيه.

اقتربت منها أكثر فصدت قربي عنها بيدها التي صدرتها أمامي، فعلمت حينها أن باقة الزهور التي بيدي لم تعد تصلح شيئًا من الخراب الذي صنعته بداخلها، وأنها صنعت حواجز بيننا لن يكون من السهل اختراقها، لكني سأحاول بقوة؛ حيث بدأت استحضر قوتي في قول شيء، سأنطق به لأول مرة لامرأة غير زوجتي... حاولت أن أبدو واثقًا غير متردد وقلت لها:

– نور أنا عايز أقولك على حاجة.

ردت في ضعف كبير برغم ما حاولت أن تتظاهر به من قوة وصوتها يملؤه الحزن:

– مبقتش عايزة أسمع حاجة يا حسن.

تسللت يدي إلى يدها وقبضت عليها فلم تقاومني، ووضعتْ يدها الأخرى على صدري تدفعني بدون قوة، وأخفضت رأسها وقالت

لي بأسًى شديدٍ راجية أن أنفذ مبتغاها:

– أرجوك إمشي، أنا ما صدقت إني نسيتك.

فقلت لها بغضب:

– متقوليش نسيتك عشان بُعدي عنك هو اللي عرفني إني بحبك.

زفرت بأنفاس خائفة مرتجفة، ثم تابعت حديثي محاولًا تحطيم جدران السكون التي حجزت خلفها:

– بحبك ومكنش بإيدي محبكيش.

اتسعت عيناها من أثر الصدمة وأخفضت وسحبت يدها من قبضتي، فقد عاد سمير مرة أخرى، وقبل أن تنطق هي بأي شيء لتبرير وجودي هنا قام بدفعي، ومن هذه اللحظة بدأ العراك بيني وبينه، بينما هي تصرخ تطلب مني التوقف حتى تلقيت منه ضربة في صدري جعلتني أتألم بشدة إثر تلك العملية الجراحية التي قمت بها في القلب مما تداعى إلى سقوطي... دفعته هي بقوة بعيدًا عني لدرجة أنه كاد أن يسقط، وأمسكت برأسي وأخذت تقول لي وهي تبكي والناس من حولها قد بدأوا في التجمع:

– حسن... إنت بخير، حسن بالله عليك يا حسن رد عليا.

كانت عيناي شبه منغلقة، لكن صوتها يهز أركان قلبي، كانت تبكي وتتساقط دموعها على وجهي، وتصرخ بوجهه طالبة منه أن يذهب بعيدًا... والتقطت أنفاسي بصعوبة بالغة حتى شعرت بنفسي أحمل على نقالة إلى سيارة إسعاف تتحرك بي، وقاموا بوضع قناع التنفس على وجهي، وآخر ما رأته عيني كانت صورتها جالسة بجانبي

تبكي، وأول ما فتحت عيني عليه طبيب يحمل مجسات كهربية بيديه بعد أن صعقني بها لأفتح عيني على هذه الحياة مجددًا... ذهبت بأنظاري إلى ذلك الزجاج التي تقف خلفه نور تراقبني والفرحة تملأ عيناها الباكية بعودتي مرة أخرى، ابتسمت لها ابتسامة خفيفة... ثم تم نقلي إلى غرفة مخصصه كان رنين نبضات القلب هو الصوت الوحيد فيها، والذي يتبعه حركة مؤشر النبضات على شاشة الجهاز الصغيرة، ولا أعرف كم مرَّت من الساعات حينما أغلقت عيني في هذا الهدوء، لكن ما أعرفه هو أني لم أقض هذه الفترة وحدي، فحين فتحت عيني وجدت نور بجانبي، لكن لم أجد ابتسامتها وحدقت بعينيها الحزينتين قليلًا ثم سألتها بكل وضوح:

– بتحبيه؟!

أومأت برأسها مجيبة بنعم، فذهبت بأنظارى بعيدًا عنها، وقلت لها في جمود

– إنت بتكدبي.

– هتفرق شيء معاك، مينفعش ابقى مع واحد مش شايفني أصلًا.

عاودت النظر إليها وأنا أقول لها بكل ما أمتلك من قوة في جسدي الخائر:

– بس أنا اتعالجت وبقيت بشوفك إنتِ.

نهضت من مقعدها ومتأهبه للرحيل وقالت لي:

– بس محبتنيش أنا.

أخذت شهيقًا عميقًا، ثم قالت لي بقسوة عكس ما بدا منها من خوف علي:

– فرحي بعد أسبوع متمناش أن يحصل منك حاجة تخليني أندم على اليوم اللي عرفتك فيه... وإنت ربنا يوفقك في حياتك وأتمنالك ربنا يسعدك.

وما أن التفتت لتغادر حتى منعتها بإمساك يدها، وأفلتتها ببطء كما أفلتت قلبي من فوق حافة الخذلان ليسقط في مستنقع أحزانه وتجعله يشعر بالخسارة. نظرت لي نظرة أخيرة قبل أن تخرج من الباب فقلت لها بصوت هادئ:

– لسه فيا نفس أكمل حتى لو قلبك بطل يحاول.

stop

نهرب من السيئ خوفًا من الأسوء، ونهدم بيوتًا عشقناها خوفًا من أن تنهار فوق رؤوسنا، نقذف بأنفسنا إلى الموت خوفًا من ضعف الحياة، نظهر فقط لأنفسنا أننا قادرون على التخلي وداخلنا يصرخ اشتياقًا لما فقدناه.... ليس كل ما تحاول أن تثبته لنفسك صحيحًا، فالتخلي إما أن تولد معه أو تقتل لأجله.

* * *

دق باب غرفتي ودخل شخص يخبئ وجهه خلف باقة الزهور يحملها بيده، فعلمت أنها طبيبتي ميرنا، وقلت لها في وجه باسم وبصوت ضاحك:

– دكتورتي، إزيك.

أزاحت الباقة من أمام وجهها وقالت لي بسخرية:

– إية ده إنت عرفتني إزاى! إنت بتستخدم قدراتك كظابط يعني.

ضحكت وأمسكت بوسادة صغيرة كانت جانبي على السرير وقلت لها:

– يعني لو حطيت المخدة دي على وشي هتعرفيني:

وضعت باقة الزهور بجانبي، وجلست على الكرسي بجانب سريري وهي تقول لي:

– كل اللي اعرفه إنك بتدلع ومجتش الجلسة، وبقالك ٦ أيام في المستشفى.

رددت في سخرية بالغة:

– الجلسة!... الدكتور بيقولي إني كنت هسيب الدنيا مش هنسى الجلسة.

أخبرتها ما قاله لي الطبيب أن هناك اضطراب في ضخ الدم في القلب، وأن ذلك سيؤثر على أطرافي بعض الشي وأنه لا يجب علي أن أبذل مجهودًا... ربَّتت على يدي، وقالت لي:

– هتقوم بالسلامة بإذن الله.

سألتها دون أي مقدمات:

– فرح نور بكرة صح؟

– متفكرش في أي شيء سلبي يأثر على صحتك.

قاطعتها وأنا أقول لها بصورة حادة:

– ردي على سؤالي فرحها بكرة صح؟!

صمتت وكان صمتها إجابة كافية لتؤكد ما كنت إخاف منه، فمنذ تلك المرة التي أتت بي إلى هنا، وأنا لم أرها ولم تتصل بي حتى...

فاجأتني ميرنا بقولها لي:

– متسبهاش يا حسن حاول تاني لو كنت واثق إنها بتحبك

– وهي لو بتحبني تتجوز واحد تاني.

– اللي شفته منك مش قليل، إنت صديتها كتير لحد ما هي إتحدت نفسها إنها تعيش من غيرك زي ما انت طلبت منها فلازم إنت تعمل حاجة.

اعتدلت من نومي حتى أستطيع مجاراتها في الحديث، وبدأ يظهر غضبي بعض الشيء في قولي:

– هعمل إيه أكتر من أني قلت لها إني بحبها.

– إثبتلها كده، هي استحملتك وقت ضعفك، وقت ما كنت مكسور، هي كانت سندك من غير ما تطلب أو حتى تحسسك بكده.

نزلت عن السرير ووقفت على قدمي وفردت ذارعي متحيرًا، ثم نهرتها بقوة:

– عايزاني أعمل إيه يعني هاا... أروح أبوظلها فرحها، ولا أعيطلها وأقولها متتجوزيش غيري عشان أنا بتنيل بحبك.

هززت رأسي نافرًا لما أنا عليه الآن، قامت من مقعدها ورفع حاملة حقيبتها على كتفها ثم وضعت يدها أعلى قلبي وقالت لي بهدوئها المعتاد:

– اعمل اللي يحسس قلبك إنه مرتاح وعمل اللي عليه... إعمل

اللي ميخليكش تندم على كل لحظة جاية من عمرك.

stop

.....

حينما تشعر أن هناك سباقًا بين دقات قلبك ودقات ساعتك، اعلم أنك على أعتاب اتخاذ قرارات مصيرية لن يحتمل أعقابها أحد غيرك فكن قويًّا إلى الحد الذي لا حدود له، واصنع المستحيل من أجل تحقيق مبتغاك فلن يبالي لأمرك أحد فربما تكون البداية في جوف نهايه تخاف منها.

* * *

الفصل الثامن

(إن لم تقاتل من أجل ما تريد لا تبك إن خسرته)

وصولي إلى هنا يعني أن هناك ما علي فعله، لم أصل إلى هنا حتى أتوقف، فأنفاسي ما زالت تتهافت على صدري، وقلبي يرفض الخضوع للموت، وكلما سقطت أقف لأقاوم تيار الحياة، كل ذلك كان لسبب، كل ذلك كان بميعاد، كل ذلك كان مقدر... فقد وصلت لنقطة إما أن أجعلها نقطة بداية أو أنتهي معها لحين وجود إشعار جديد للحياة التي تنهكنا بتجاربها القاسية.

استأذنت من الطبيب المغادرة لبضع ساعات على أن أعود للمشفى مرة أخرى، بعد أن كان لكلام ميرنا تأثير السحر على عقلي وعاهدت نفسي أن أحاول بكل قوة وأن أحارب من أجل نفسي سأجعلها تشعر بما أشعر به وتعلم أني أحبها حقًّا.

كانت الساعة التاسعة إلا ربع حين نظرت في ساعتي، أخرجت هاتفي واتصلت بنور فأجابتني:

- إزيك.

- أنا الحمدلله... عايز أشوفِك.

- إنت خرجت من المستشفى.

– آه خرجت من كام ساعه، بس راجع تاني وعايز أشوفك لو سمحتي.

صمتت ولم تجبني بشيء، حينها رأيت أن أكمل كلامي محاولًا إقناعها.

– اعتبريه وداع أخير... مستهلش منك وداع أخير؟!

تمهلت لحظات ثم زفرت وهي تقول لي:

– هقابلك فين؟

أخبرتها بمكان مقابلتنا، وطلبت منها أن تفتح باب شقتها ثم أغلق الخط.

* * *

فتحت الباب فوجدَت أمامه فستانًا أحمر موضوعًا فوقه ورقة، مكتوب عليها بخط مزخرف: (غدًا ستحتفلين، دعيني اليوم أحتفل بيكي على طريقتي الخاصة).

التقطته في ضجر شديد، ثم ألقت به على سريرها، وقررت ألّا تسايره فيما يريد أن يراها به، وأن ترتدي رداء آخر، وبعد أن بدلت ملابسها وقبل أن تغادر غرفتها ظلت تنظر لذلك الرداء بشغف كبير إلى أن ساقها ذلك إلى رغبتها في تجربته، ولم تقاوم تلك الرغبة، وقامت بارتدائه ووقفت أمام مرآتها تفتتن أمامها، وقد كان يليق بها كثيرًا ثم خرجت من غرفتها، ورأتها أمها التي استيقظت من نومها، ولم تنادها لتساعدها على الجلوس على كرسيها المتحرك: وقالت لها:

– رايحة فين يا نور؟!

تشابكت يداها في توتر، ونظرت بالأسفل ولم تكن تعرف بماذا ستجيبها لكن أمها وجدت الإجابة دون الحاجة لإجابتها.

– إنتِ رايحة تشوفي حسن؟

– آه يا ماما، ودي المرة الأخيرة، هو عايز يودعني.

ابتسمت في سخرية ودفعت عجلات الكرسي، حتى اقتربت منها وقالت لها:

– اللي بتعمليه ده غلط، وهيخليكي تضعفي، وخدي بالك أن فرحك بكرة، لو الشخص اللي معاكي ده مش بتحبيه قولي لأ وأنا أوقف كل حاجة.

– أنا خلاص مبقتش أحب حسن يا ماما، وبفكر بعقلي قبل قلبي، ومتخفيش عليَّا، بس سبيني أروح أشوفه عايز إيه.

لم تقتنع أمها بما قالته لها، لكنها تركتها تذهب؛ لأنها لا تريد أن تشعرها بمزيد من التوتر غير الذي يظهر عليها... غادرت نور المنزل وحين نزلت وجدت سيارة تنتظرها أمام بيتها، أخبرها سائقها أنه أتى هنا بأمر من السيد حسن مصطفى، ركبت فأوصلها إلى المقهى الذي اعتادا أن يتقابلا فيه، لكن هذه المرة كان المقهى مختلفًا كثيرا، فقد كان هناك طاولة واحدة موضوعة في منتصفه، يحيط بها أوراق الورود من كل جانب، وبعض البالونات المنظمة بشكل مرتب، ولافتة كبيرة انزلقت من أعلى لأسفل لتغطي ما خلفها مكتوب عليها:

(سرتُ في آفاق الموت أبحث عن نهاية، قتلت نفسي حيًّا في أحزاني، ثم رأيت فيكي نورًا جذب انتباهي، جعلني لا أستطيع الدفاع عن ذاتي، فَتَحِيَّةً لكي، وسحقًا لحياتي، لا ألومكي على الهروب من

أشواكي، وغدًا يكون عرسك وأنا الباكي، الأبيض فستانك ولون رداء رفاتي، ورب السموات يعلم حالي أني أحببتكي غير قاصد عذابي).

اقتربت هي من اللافتة شيئًا فشيئًا حتى انتهت من قراءتها ثم خرج من خلفها رجلٌ يرتدي بذلة، يحمل قيثرته في يده، وبدأ في عزف موسيقى عذبة، بينما جاء حسن من خلفها ووضع يده على كتفها، التفت ونظرت له، والدموع بعينيها، وابتعدت عنه بضع خطوات، مد لها يده وهو يقول:

– على الأقل رقصة أخيرة.

اقتربت منه في بطء وأمسكت بيده وبدأا يتمايلان على ألحان الموسيقى الهادئة، وكان ينظر لها نظرات صارخة، بينما هي تحاول أن تجافي نظراته تلك... كرر هو سؤاله السابق قائلًا:

– بتحبيه؟

رفعت رأسها ونظرت له والدموع تنزلق من عينيها وقالت:

– عايز إيه؟

– عايز اهرب، عايز أغمض عيني وأفتحها ملقنيش في الدنيا دي، مش عايز أشوفك بتضيعي مني، ومش عايز أبوظلك حياتك، هو إنتِ ينفع تسيبي الدنيا دي وتكوني معايا، وميهمكيش الناس والدنيا واللي يهمك انا بس؟! طب ينفع تخلي قلبي يطمن إنك مش هتبقى لحد تاني غيري؟! ينفع تقوليلي مش هسيبك؟!

ازداد سرعة دقات قلبها، ووجدت نفسها تعانقه بقوة، بل بكل ما تحمله من قوة؛ حيث ظن بهذا العناق أنه انتصر، وأنها الآن قد استسلمت لما بقلبه من حب، حتى سمع صوت أنينها ينذره بالنهاية،

تريد هي أن تضعها لهذا العذاب الذي لا تستطيع التخلي عنه وقالت له:

– كفايا بالله عليك، كفاية سبني أعيش من غيرك، هتعب لفترة بس صدقني جمبك هموت... روح دور على نفسك صدقني هتلاقيها.

أفلتت ذراعيها وكأنما تفلت يده على حافة الهاوية، نظر لها بغضب شديد ثم دفعها، فسقطت أرضًا... توقف العازف عن العزف وأصبح أكثر صوت مسموع هو صوت أنفاسه تتلاحق على صدره بقوة، بينما هي ما بين الضيق لما بدر منه والخوف أن يصيبه مكروه... نهضت وحاولت الاقتراب منه مما جعله يدفعها مجددًا دفعة أقل قوة من السابقة لم تؤدِ إلى سقوطها، ونظر لها بجمود وضجر شديد، ثم قال صارخًا فيها:

– إمشي.

وقبل أن تنطق بأي شيء صرخ في وجهها مجددًا، فتراجعت إلى باب المقهى سيرًا بظهرها تراقبه، بينما هو ينظر لأسفل ويسقط على ركبتيه في يأس كبير، محطمًا أمله الأخير في الملاذ بها.

stop

نلجأ للدموع حينما لا نستطيع التعبير بالكلمات، ونلجأ للعناق حينما نشتاق أو عندما لا نستطيع وصف الخوف بداخلنا، فنلقى بأنفسنا بداخلهم ربما يجدون تفسيرًا لذلك الخراب بداخلنا، أو يصلحوا شيئًا مما أفسد أو يخبروك أنك لست وحدك... ففي العناق لا نحتاج إلى كلمات، نحتاج فقط أن نكون صادقين.

* * *

جلست شاردة تنظر إلى صديقتها من بين الحين والآخر بعين كسولة حتى لاحظت نور ذلك، فقالت لها نور وهي تنظر في المرآة:

– مش حساكي فرحانة علشاني يا هاجر!

ابتسمت في سخرية وهزت كتفيها في لا مبالاة، ثم اقتربت منها ووضعت يديها على ظهرها، وقالت:

– إنتِ كمان مش فرحانة لنفسك يا نور!

تطابق جفناها، وعقدت أصابعها وزفرت في حنق، فتابعت هاجر حديثها:

– حسن ميستهلش منك كده، أنا لو لقيت حد يضحي بحياته علشاني مش هسيبه لو هيحصل إيه.

هزت رأسها نافرة وضاجرة من حديثها وهي تقول لها بحدة:

– الوقت فات على اللي بتقوليه ده أنا فرحي النهار ده!

دخلت مسئولة التجميل حتى تبدأ عملها فطلبت منها نور الانتظار بالخارج قليلًا ثم نظرت لصديقتها بجمود وقالت لها:

– حسن تعبني كتير ودي كانت النتيجة.

– إنتِ كده مبتنتقميش من حسن، إنتِ بتنتقمي من نفسك، إوعي تغلطي غلطة تندمي عليها عمرك كله.

تركت مقعدها ووقفت أمام صديقتها وقالت لها وعيناها تملؤها الرجاء:

– أبوس إيدك حتى لو إنتِ شايفة إني مش مبسوطة وإني بكدب على نفسي سبيني أصدق الكدبة دي.

وقفا ينظران لبعضها دون حديث حتى فتحت هاجر ذراعيها لصديقتها وتعانقا بقوة، وقالت لها نور بصوت باكٍ:

– حسن مبيحبش غير مراته القديمة وبيشفني شبهها... لو مفترقناش النهار ده هنفترق بكرة.

طلبت منها عدم البكاء ومسحت عينيها وقالت لها:

– إيه ده معندناش عروسة تعيط يوم فرحها... خلاص بقى نفرفش كده وعايزه أشوف ضحكتك يا عروستنا.

ابتسمت لها ابتسامه قاتلة لم تصلح شيئًا من الخراب بداخلها ثم مضا كلاهما في التحضير لزفاف اليوم.

* * *

أنفاسًا تلاحقت ظنت أنها النهاية، لكن حينما استنشق أنفاسها شعرت ببداية جديدة، وكنت حينها لا أملك سوى ذلك المتحطم بداخل جعبتي، ومرت الأيام وتطور الأمر وأصبحت أنتظر منها أن تكون دائمًا بجانبي، وأصبحت لي شمس أشرقت على مدينةٍ كل سكانها موتي؛ لتدب فيهم الحياة مرة أخرى وتبعث بسمة الأمل... يؤلمني كثيرًا أني أحببتها، ويؤلمني أكثر أنها لم تصدق حبي، فقد أحببتها وأنا لا أملك أي دليل على حبي سوى أني أحبها، والآن أشعر بالغربة بدونها، بعد أن شعرت بأبواب الحياة تفتح لأجلي مجددًا، لكن أحيانًا ما تظنه حبل النجاة يكون مشنقة لقتلك بطريقه أخرى... وها أنا الآن هائمًا بين الطرقات قلبي يحترق، ولا أعرف هل الخطأ أنني أحببت أم أنني لم أدرك أني أحببت في الوقت المناسب، لكن في أي حال من الأحوال لقد انتهى كل شيء...

رن هاتفي فأخرجته من جيبي وكان المتصل مليكة:

– أيوه يا حسن انت فين؟

– مش مهم أنا فين أنا ذات نفسي ماشي ومش عارف رايح فين!

– انت مش هتيجي... الفرح بدأ...

أغلقت الخط قبل أن تكمل حديثها، ولم أعد أجيب على أي اتصال، شردت في ظل هدوء الشارع الذي أسير فيه سارحًا في ذكرياتي، ويتردد بعقلي قول طبيبتي:

– اعمل اللي يحسس قلبك إنه مرتاح وعمل اللي عليه... اعمل اللي ميخليكش تندم على كل لحظة جاية من عمرك...

توقفت أسأل نفسي هل أنا حقًّا قد فعلت كل ما يجب على فعله، هل كانت تستحق مني أن أحاول أكثر من ذلك، تمنيت أن تكون الإجابة لا؛ لأن ما بيدي شيء لأفعله الآن، ففي هذه اللحظات تحتفل بعرسها مع من سيصبح زوجها الليلة.. وأثناء سيري على أشواك أحزاني بخطواتي الواهنة تذكرت قولها لي: (روح دور على نفسك صدقني هتلاقيها).

جعلتني هذه العبارة أتوقف عن السير، وقد تجمدت قدماي معها، وبدأت أفكر بعمق وأتساءل: ماذا لو لم أجد نفسي إلا أمامها، ماذا لو كانت نتيجة بحثي هو أن أقف أمامها الآن... وبدأ يراودني شعور الرغبة في المحاولة مرة أخرى وبدأت أقول بداخلي: محاولة أخيرة لن تضر، فعلى الأقل سأقول لنفسي إن خسرت أني حاربت حتى النهاية، وأتمنى أن يكون هناك وقت لإصلاح كل شيء.

حاولت أن أسرع لكن لم تُعِنِّي خطواتي المتضاربة في الحركة لكني حاولت قدر المستطاع حتى وصلت إلى الشارع العمومي وركبت سيارة أجرة سألني سائقها

– رايح فين؟

– رايح أعمل اللي يحسس قلبي إنه مرتاح وعمل اللي عليه، رايح أدور على نفسي.

نظر لي رافعًا حاجبيه متعجبًا مما أقول ثم ابتسم وقال:

– ربنا يوفقك بس مقلتليش هتدور على نفسك فين؟

أمليته العنوان، وطلبت منه أن يسرع لأن الوقت ينفد، نظر لي نظرة واثقة، وقال لي بجدية:

– اربط الحزام يا باشا.

كان نسيم الهواء يداعب وجهي في ظل الظلام الذي صنعته بإغلاق عيني، وصورتها أمامي تحيي أمالًا بداخلي، وكلما مر الوقت كانت ثقتي تزيد ولا أعرف من أين أتيت بها، وفتحت عيني بتوقف السيارة والسائق يقول لي:

– القاعة آخر الشارع ده بس الدنيا هنا زحمة.

أعطيته الأجرة ونزلت مسرعًا، ثم حاولت العدو لكني شعرت بغصة بدأت تداهمني بقلبي، وكنت أعرف أن ألم الفقدان أكبر مما جعلني أقاوم ذلك الألم الجسدي... وصلت أخيرًا إلى القاعة، دخلت في وجه ملتهف، صوبت نظري إلى نهاية القاعة فوجدتها ترتدي فستانها الأبيض وتجلس بجانب عريسها سمير في وجه شاحب لا تعلوه حتى

بسمة مصطنعة تكذب بها على الحاضرين وتخبرهم بها أنها سعيدة لزواجها اليوم.

بدأت اقترب ببطء في خطوة واهنة، وعيناي لا تتحول بعيدًا عنها، وما أن رأتني مليكة أقبلت علي مسرعة فسألتها:

- كتبوا الكتاب؟!

هزت رأسها نافية ذلك، ربَّتُّ على كتفيها ثم تابعت مسيري إليها إلى أن أصبحت على مطلع الأنظار لهما، استطاعت مليكة إيقاف موسيقى الحفل، صعدت على المنصة ومددت يدي لها بينما هي تنظر لي ودموعها تصنع من الكحل الأسود تحت عينيها آفاقًا من الظلمة، وما أن مدت يدها لي حتى امتلأت عيناي أنا الآخر بالدموع، قلتُ لها وعلى وجهي بسمة مؤلمة:

- دورت على نفسي ملقتش نفسي غير هنا قصادك... أنا آسف إني عذبتك معايا، وآسف على كل تعب سببتهولك بس مش آسف على إني بحبك.

تركت يدها ومددت يدي لأسلم عليه فحاول هو أن يجعل الأمر طبيعيًّا ومد يده ليصافحني وعلى وجهة ابتسامة النصر وقلت له:

- مبروك خد بالك منها.

نزلت عن المنصة وسرت إلى باب الخروج، والجميع ينظر إلينا في صمت قاتل، وقبل أن أخرج التفت لها فوجدتها واقفة ولم تفارقني نظرات عينيها، بل كانت متشبسة بي فنظرت أمامي بعد شرودي بها وإلقاء نظرات الوداع، وسرت مسرعًا بخطواتي المتضاربة تلك إلى الخارج ودموعي تسقط من عيني دون بكاء، وأزيحها عن وجهي في

كبرياء، وعلى الرغم من فشل محاولتي لكني أعلم أن لي بداخلها شيئًا لم يمت إلى هذه اللحظة، وفي ظل تسارع أنفاسي وازدياد الألم بقلبي أكثر فأكثر أصبحت أدرك أني غير قادر على الاحتمال أكثر... غادرت المكان وسيرت على الرصيف عكس الطريق، وشعرت أني على وشك السقوط، وإذ بيد تمسك بي رسمت على قلبي ابتسامه كبيرة، ورفعت ذراعي لتضعه على كتفها، وأحاطت بذراعها وسطي حتى تسندني فسألتها ضاحكًا:

– إنتِ عارفة إنك مجنونة.

أومأت برأسها مؤيدة ذلك وهي تضحك مثلي:

– آه.

– طب إنتِ عارفة إني بحبك.

– للأسف عارفة.

عانقتني بقوة كافية لتعلمني أن قلبي قد أصبح بمأمن أن هذه ليست النهاية هي بداية قوية فقط... فالدموع ليست كافية لتفرقنا فما بيننا كان أقوى من أن تقتله لحظات الوداع.

stop

لن يصدق أن بداخل هذه الروح المحترقة حياة إلا شخصًا أحبك أقسم على أن يخرجك إلى النور.

(أخبرني أن ذلك مستحيلًا وأنظر ماذا سأفعل)

* * *

بعد ١٠ سنوات:

طرقت باب غرفتها ففتحت إسراء الباب إلى آخره في وجه بشوش مفعم بالسعادة والفرح، وجدتها تجلس أمام مرآتها وحين عكست المرآة صورتي التفتت إلى ونظرت ضاحكة، وقبل أن تقبل إلى سبقتها صغيرتي ندى التي أنجبها منذ ٩ سنوات وأسميتها باسم ابنتي المتوفية... عانقت ما تستطيع قامتها أن تصل إليه وإشارت بأصبعها ناحية مسئولة التجميل قائلة:

- بص يا بابا طنت حطيتلي إيه.

حملتها وقبلتها وأنا أقول لها مازحًا:

- دا احنا صعنا على الآخر يا نونو.

أنزلتها وأقبلت على قمري الذي تزين برداء العرس الأبيض... أمسكتها من كتفيها وأنا مبتسم ثم قبلت رأسها وقلت لها:

- بسم الله ما شاء الله، قمر يا ملوكتي... كبرنا أهوه وبقينا عرايس.

ضحكت ثم قالت لي بصوت يتخلله الحزن:

- كان نفسي بابا يبقى معايا اليوم ده.

ربَّتُّ على كتفيها وأنا أحاول إزاحة الحزن عن تلك اللحظات السعيدة:

- ربنا يرحمه يا حبيبتي... بعدين هو أنا مش بابا ولا إيه؟!

عانقتني ثم قالت لي بصوت هادئ ودافئ.

- أكيد بابا وأحلى بابا كمان، ربنا ما يحرمني منك يا أبو علي.

علقت يدها بذراعي وأمسكت ندى بيدي الأخرى، ونزلنا

على درجات السلم في ظل عزف وتصفيق الحاضرين حتى سلمتها لعريسها، وقبل تهرب دموعي من عيني، وجت نور تمسك بيدي وتنظر لي بكل حب وبيدها الأخرى تمسك ابننا الأصغر مالك، ثم نظرنا جميعنا للأمام وأرسلنا تحية مليئة بالحب لكل من انتهى من قراءة الرواية ^_^

❊ ❊ ❊

Timeline :https://www.facebook.com/Omar.EXlans1

Fan page :https://www.facebook.com/magdy.omar2

Fan page (Exlans) : https://www.facebook.com/omar.ex222

Soundcloud(Exlans) :https://soundcloud.com/ex-x

لائحة الشكر

ماهيتاب سعيد

هاجر مصطفى

حسن مصطفى

أمنية مصطفى محروس

رحمة سيد

محيي الدين محمد

إبراهيم إحمد

نورهان رمضان

محمد عبد التواب

عبد المجيد عبد الحميد

شكر خاص لـ

أ/ أشرف شحاتة

د/ أحمد عبد العال

نبذة عن الكاتب

مجدي عمر، كاتب روائي ومغني، حاصل على ليسانس آداب تاريخ جامعة حلوان، أصدر ألبومين بعنواني: (١٠٠ لون، وسنجل)، وله عمل روائي سابق (بدون روح)، وكانت أول رواية يصدر معها ثلاث أغاني خاصة بالرواية.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الأول	٥
الفصل الثاني	١٩
الفصل الثالث	٣٩
الفصل الرابع	٦٣
الفصل الخامس.	٨٥
الفصل السادس	١١١
الفصل السابع	١٣٣
الفصل الثامن	١٥٥

* * *